بدائع الخيال

عشر قصص ممتعة للفيلسوف الروسي ليون تولستوي

تعريب

عبد العزيز أمين الخانجي

الطبعة الثالثة

منقحة ومضاف إليها أربع قصص جديدة

١٣٥٥ هـ – ١٩٣٦ م

مكتبة الخانجي

لأصحابها أولاد محمد أمين الخانجي

بشارع عبد العزيز بمصر

إدارة مطبعة ومكتبة الشباب

بسم الله الرحمن الرحيم

قارئي العزيز

أتقدم اليك شاكرا مغتبطا بالطبعة الثالثة من كتابي بدائع الخيال الذي يجمع بين دفتيه عشر قصص مختارة من مبتكرات الفيلسوف الروسي العظيم « ليو تولستوي » عربتها من كتاب بالانجليزية عنوانه: Twenty Three Tales From Tolstoy

أما الشكر فللاقبال والتعضيد اللذين لقيهما الكتاب منذ اصدار طبعته الاولى في أواخر عام ١٩١٩ فطبعته الثانية في أوائل عام ١٩٢٢ .

أما الاغتباط فلرواج الكتاب في زمن كثر فيه تهافت القراء على الغث من القصص الموضوعة أو المعربة ، وفي زمن عمت فيه الشكوى من الفوضى السائدة في سوق الطباعة والنشر في مصر. وهذا الشعور يشاركني فيه أهل الغيرة من الراغبين في الاصلاح.

لقد تقدم الفن القصصي بين الأمم الغربية في يومنا هذا وأصبح من أعظم الوسائل التي يعتمد عليها رجال التفكير والاصلاح في بث آرائهم وأفكارهم وخلاصة أبحاثهم ونظراتهم

فى شئون الحياة . ولقد خرجت القصص بهـذا التطور الجديد عن دائرة الغرض الذى وضعت من اجله أى التسلية .

ولكن لمن الفضل فى هذا التطور ؟ الفضل بلا ريب عائد على القارىء ذاته الذي أصبح لا يميل الى قراءة الروايات التى تصور له الوقائع الدموية والمشاحنات العنيفة بين اللصوص ورجال الشرطة التى تدور حولهم محور القصة . أو التى تصور لهم مناقشات العذال ومجادلات الرقباء لحبيبين جعلهما القصصى الشخصيتين اللتين يجرى عليهما الحديث

هـذا النوع من القصص قد قضى عليه فى اوروبا وجرء بين النوع الجديد الذي يجمع بين التسلية والافادة ، النوع الجديد الذي يرمى الى بث الآراء الاصلاحية والافكار والملاحظات الاجتماعية فى الثوب القصصى .

قد يقول قائل : ان الفرق بيننا وبينهم مازال واسعا وأن ناشري الكتب يجارون فى تلك البلاد عقلية آخذة فى مدارج الكمال ، عقلية تستطيع أن تتذوق هذا النوع الجديد وأن تتفهم مافيه من فكر ومغزي. ولكننى أقول أن هذه حجة واهية لأن القارىء فى بلادنا اذا كان يقرأ القصة لمجرد التسلية فانه يجد بغيته فى النوع القصصى الجديد أيضا ، لاسيما اذا كانت القصة مكتوبة

بلغة سهلة . فاللوم اذن يقع على الناشرين الذين أحدثوا في أسواق المطابع تلك الفوضى التي يشكو الجميع منها . ولكن لا تنس أي قارئي العزيز أن عليك نصيبا من هذا اللوم لأن الناشر والمعرب والمؤلف والطابع كل هؤلاء انما يأتمرون بأمرك ويتمشون مع رغبتك فان أردت أن ترغمهم على تقديم النافع الصالح وعرض الحديث الطيب من مبتكرات القوم فأعرض عما يقدمونه لك من القصص الداعرة والروايات الغثة أمثال (وقائع كارتر) (والحلقات البوليسية) (ومجموعات جونسون) وذيولها . . . ورزكامبول وأم روكامبول وابن روكامبول . . . وما الى ذلك من القصص التي اثمها أعظم من نفعها .

عاهدني أن تفعل ذلك منذ اليوم وأن تنشر الفكرة بين اخوانك وبني عشيرتك فلا تلبث أن ترى ثمرات هذا العهد بعد زمن قصير .

لقد أطلت عليك الحديث وخرجت بك عن موضوع المقدمة دون ان أحدثك عن محتويات الكتاب ومزاياه كما هي العادة في المقدمات ولكن مالي والتعرض لهذا الأمر ! فالكتاب بين يديك ـ وقد نقدت ثمنه بلا ريب ـ فاقرأه وانقده ووازن بين مادفعته من ثمن وبين ما استفدته من مطالعته ، فاذا وجدت

نفسك راجيا فاطلب من المولى أن يعينى على السير فى هذا السبيل أما ان كنت تجده تافها لا يستحق ما بذلته أنا من وقت فى التعريب وما صرفته أنت من وقت فى القراءة فعاملنى اذ ذاك بجميل صنعك واعلم أن لى من حسن النية خير شفيع والسلام ؟

عبد العزيز أمين الخانجى

شارع النزهة ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢٦

ترجمة حياة مؤلف الكتاب

تمهيد — قد يتوالى كر الجديدين وتمر الايام والاعوام مر السحاب طامسة باقدامها رسوم الاجيال الماضية والناس على ما هم عليه من فطرتهم الاصلية مستسلمون لما ورثوه عن آبائهم من التقاليد والعادات مذمومة كانت أم مرضية ، فاسدة أم صحيحة ، ويظلون كذلك لا يفقهون معنى لما يرونه من المرئيات ولا يحركون ساكنا لما يمر عليهم من صنوف العظات ، الى ان يمن الله عليهم بمن يميط اللثام عن سر ماجهلوه ويكشف لهم الستار عن كنه مالم يتحققوه ، فينبههم من رقدتهم ويرشدهم الى ماكانوا عنه غافلين

أولئك هم أقطاب العلم ورسل التهذيب ومهبط المدنية ونور العرفان ، بهم تهتدى الامم وعلى يدهم يتم صلاح الجماعات ونظام الشعوب ، غير ان الدهر وهو بخيل بامثال هؤلاء الاقطاب لا يكاد يجود بفرد منهم على رأس كل جيل حتي تنصب عليه سهام اللعنات من كل صوب وتتلقاه الناس بالعداوة والبغضاء ، والسبب واضح جلي فالناس اذا استسلمت مدة من الزمان الى بعض العادات الفاسدة وتوارثت طوال الاجيال العاهات والامراض النفسية بعضها عن بعض ، تصبح بينهم من الصفات اللازمة ولا ينظرون

اليها اذ ذاك كماهات وأمراض بل يعتبرونها كخلال طبيعية أنزلها الله على آدم ، فاذا ظهر بينهم من هو خال منها غير متحل بما ظنوه ناقصا ناصبوه العداء ونابذوه الالقاب

نظرة الى كل من اشتهر بفضل أو عرف بشيء من النبل نعلم مقدار ما عانى من الدهر وقاسى من مناوأة الناس فى سبيل الحق . فهذه أئمة المسلمين وهداتهم مثل مالك والشافعى وفلاسفة هـذه الامة ودعاة الصـلاح فيها كالمعرى وابن رشـد وابن تيمية ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس وغيرهم من علماء المعقول والمنقول ممن لا تزال أشخاصهم ماثلة فى أذهاننا ولا نزال نستضيء بنبراسهم قد نغص الدهر عليهم عيشهم وضيق عليهم مذاهبهم لشذوذهم عن المألوف وخروجهم عن المعروف ولم يرجعهم ماهم فيه عن سبيل رأوه هو سـبيل الحق بل مازالوا فى عراك وكفاح حتى لقوا ربهم فرحين بما قضوا من واجب الارشاد عليهم غير مكترثين بما لقوا فى سبيل الواجب

والكونت تولستوى الذي أقدم الي القراء ترجمـة حياته (مقتضبة من دائرة المعارف البريطانية ومجلة الهلال الغراء وبعض المجلات التركية) هو أحـد أولئك الافراد القلائل الذين لا يكاد الدهر يجود بواحد منهم حتي يتفانى الناس فى تمجيد خصاله ويغرقون

فى اجلال ذكره وا كبار شأنه إذ يعمل الفرد منهم على اسعاد نوع الانسان وترقية حال بنى البشر اكثر مما يعمله المئات بل الالوف من معاصريه

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا الى الفضل حتى عد الف بواحد .

* * *

نشأته الاولى ـ تشغل حياة تولستوى ثلاثة أرباع القرن التاسع عشر وعشر سنين من فجر القرن العشرين اذ كان ميلاده فى الثامن والعشرين من شهر أغسطس عام ١٨٢٨ فى قرية (ياسنايا بوليانا) فى ولاية طولا من أعمال روسيا . فأنت ترى أن شمس حياته بزغت فى فجر القرن التاسع عشر وعاش معاصراً لكثير من فحول العلماء والفلاسفة مثل هيجو وغوته وغيرهما من الذين ولدوا معه فى فجر القرن وغربت شموس حياتهم فى أصيله

وأسرته المانية الاصل هاجرت فى عهد بطرس الاكبر واشتهر منها بطرس تولستوى الذى كان سفيرا لروسيا لدى الدولة العثمانية وأدخل فى مصاف الاشراف عام ١٧٢٤ وكان لهذه الاسرة منزلة رفيعة بين الاسر الروسية اذ اشتهر كثير من أبنائها بالسياسة ونبغ اخرون منهم فى فن الكتابة .

أما أمه فكانت من بيت مجد عريق فى الحسب وشرف الاصل

يعرف بأسرة فولكون وكانت القرية التي ولد فيها الفيلسوف ملكا لها فأقامته فيها ليقضي أيام طفولته ولكن وافاها القدر المحتوم وهو في ابان نشأته فعهد بتربيته الى سيدة من ذوات قرابته وانتقل به والده اذ ذاك الى مدينة موسكو حيث عاجلته المنية قبل أن يبلغ الكونت العاشرة من عمره فعهد بتربيته الى سيدة أخرى من ذوات قرابته تدعى بوشكوفا فعادت به الى قرية ياسنايا مقر ولادته وهناك تلقى دراسته الاوليه .

تعليمه ـ وما كاد يبلغ الخامسة عشر حتى انتقل الى مدينة قازان وانتظم في سلك جامعتها مدة عامين توفر أثناءهما على دراسة بعض العلوم العالية وفيها درس أيضا بعض اللغات الشرقية غير أنه مالبث أن عافت نفسه الجامعة ودروسها لنفوره من اخلاق تلامذتها فعاد الى قريته ثانية وأكب هناك على مطالعة كتب مشاهير المؤلفين والادباء من الروسيين والفرنسيين والالمان أمثال روسو وهيجو وفولتير وديكنز وبوشكن وترجنيف وشيلر وغوطه ولكنه كان أكثر تعلقا بمؤلفات روسو، فعاش عيشة مستقلة لا يحتاج فيها الى مرشد ولا مؤدب الا الدهر وحوادث الايام وتتبعاته الشخصية .

أوائل شبابه ـ وقد أخذت الاعتبارات الفلسفية تشغل

أفكاره فى أوائل شبابه فكان شغله الشاغل أيام صباه هو التفكير فى (ماهو الانسان ؟) و (من أين أتى ؟) و (الى أين مصيره ؟) و (ماهى السعادة ؟) الى غير ذلك من المسائل الفلسفية العويصة التى كانت ترد مخيلته تباعا آخذة بعضها برقاب بعض حتي نشأ عنده ميل خاص للمباحثات والمناظرات فكان يقضى طوال الساعات والايام فى مجادلة أقرانه ومناقشتهم فيما يعرض له من الافكار .

انتظامه فى سلك الجندية — وبينما كان الفيلسوف الشاب على الحال التي وصفناها لك حائرا بين تأثيرات الطبيعة وموحيات الكتب والاسفار اذ زاره شقيق له أكبر منه سنا فى قرية (ياسنايا) وكان شقيقه هذا من ضباط الجند الروسى ببلاد القوقاز ، فوصف له حالة الجند وماهم عليه من نضارة العيش ورفاهة الحال وما زال به يحسن له حالته ويرغبه الانتظام بسلكهم حتى رضي وأطاع شقيقه فاصبح فى عداد الضباط وهو فى الثالثة والعشرين من عمره وعند نشوب حرب القرم انتقل الى الطونة وانضم الى أركان حرب البرنس غورتشاكوف ثم انتقل الى سباستبول حيث عين قائدا لفرقة من المدفعيه . وكان لانتقاله من بيئة لاخرى أثر كبير فى اثارة قريحته وتوسيع خياله فتغيرت أطواره وتحولت كليته وتبطنت أعماق نفسه بانفعالات كثيرة ظهر على أثرها أهم مؤلفاته التي يصف

يهـا الة الجند وأهوال الحروب ومايكابده الانسان من فظائعها

رحلته وزواجه ـ وفى العقد الرابع من سنى حياته تطلع الى السفر فسافر سنة ١٨٦٢ وساح فى بعض أنحاء أوربا ثم رجع الى قريته واقترن فى العام الثانى بالسيدة صوفيا ابنة الدكتور بيرس الالمانى الذى كان يقيم فى موسكو فاضطر تولستوى أن يداول السكنى بينها وبين قريته وكانت قد نضجت مواهبه واتسعت معلوماته لكثرة ماشاهده واختبره بنفسه وكانت الحكومة قد عينته قاضيا فى قريته فبدأ بنشر تعاليمه وأخذ يدعو الناس الي السلام والفضيلة سواء با القدوة أو بالتعليم

عيشته اليومية ـ وقد اشتهر بزهده فى الحياة وتخليه عن مظاهر الوجاهة فكان فى قريته مع زوجته وأولاده فى منزل بسيط محاط بغابة كثيفة ليس فيه من الاثاث الا الضرورى فكان يقوم مبكرا فيلبس ثوبا بسيطا مثل أثواب الفلاحين وهو عبارة عن سراويل واسعة فوقها كساء كالقميص يتمنطق حوله بسير من الجلد .

وكان يتناول طعام الافطار ثم يذهب الى العمل فى حرث الارض وتعهد أشجارها وبذر الحبوب ومساعدة ضعفاء الفلاحين فى أعمالهم .

سيرته بين فلاحيه ـ كانوا يعجبون بتواضعه ويستأنسون بدعته ولطف شمائله فاذا وقع بينهم خلاف تقاضوا اليه وارتضوا حكمه وكان قد أنشأ فى قريته مدرسة ينفق عليها من ماله الخاص لتعليم أبناء الفلاحين وكان يتولي تعليمهم بنفسه ، فاشتهرت المدرسة وقصدها أهل المدائن الاخرى المجاورة يلتمسون الاستفادة من آرائه وفلسفته وأنشأ لهم أيضا مجلة تهذيبية تصدر باسم القرية وقد بلغ من محبته لفلاحى قريته انه أراد أن ينبذ فكرة الاستئثار بالملك الشخصى وأحب أن يوزع أملاكه بينهم بالتساوى فيشتغل كواحد منهم ولكن زوجته وذوى قرابته أبوا عليه ذلك تلك كانت حاله بالصيف أما فى الشتاء فكان يقيم فى موسكو فينقطع عن الاعمال البدنية ويتفرغ للتأليف والتحبير فيؤلف ويراسل ويكاتب

حياته العلمية ـ لا نكاد نذكر اسم تولستوى حتى يخطر على البال مؤلفاته العديدة ورسائله المتنوعة وأشهرها (الحرب والسلم) و (البعث) و (حنا كرانينا) و (القيامة) و (أين المخرج) و (الحب والزواج) و (بم يعيش الناس) و (ديانة المسيح) و (الحياة) و (مملكة الظلام) غير أننا لا نكون مبالغين إذا قلنا أن لرواياته الثلاث الاولى وهى (الحرب والسلم) و (البعث) و (حنا كرانينا) القدح المعلى والمكانة السامية فى عالم الادب والتأليف لا فى الروسيا

فقط بل فى جميع العالم الاوروبى . ولا مراء فى أن هذه الروايات الثلاث هى الدرة اليتيمة وواسطه القلادة بين درر مؤلفاته وغو الي حكمه فان رواية(حنا كرانينا)تمتاز بدقةالبحث فى تصوير مايحصل عادة فى عالم الزواج من ألالآم والاضطرابات التى منشؤها عدم التروى والمضى مع الاهواء النفسية وفى روايته (البعث بعد الموت) وصف الامراض الاجتماعية وصورها بكل ألوانها ومعانيها مع ذكر كيف أن الناس فى هذا العصر أصبحوا يتنشقون سموم الظلم والاستبداد ويتجرعون كؤساملؤهاالكذب والرياء بدل استنشاقهم الهواء وشربهم الماء .وفى هذه الرواية يقول الناقد الفرنسى المعروف جول لومتر : « كتب تولستوى روايتيه (الحرب والسلم)و(حنا كرانينا) ثم خجل من الشهرة وبعد الصيت اللذين نالهما أثر ظهورهما فاحتجب فى كسر داره واختفى بين صحائف الانجيل مدة خمسة عشر عاما ثم ظهر فى عالم الادب ثانية وفى يده أعجوبة مؤلفاته » كتاب البعث بعد الموت »

ولو أمعنا النظر فى حياة تولستوى المعنوية نرى أنها بكل ألوانها ومظاهرها سياسية كانت أم اجتماعية،دينية أم خلقية،عبارة عن سلسلة حروب شعواء كان يشنها ذلك الرجل العظيم ضد الظلم والاستبداد ومفاسد المدنيـة الحاضرة ورذائلها فكان يرى رأى

روسو القائل بان صلاح الناس أو فسادهم إنما يدخل عليهم من باب المعاشرة والمخالطة ويسلك اليهم من طريق البيئة والجوار ثم نظر الى المدنية الحاضرة المشمشمة بالانوار الكاذبة وفطن الى ماتحت تلك الاضواء من ظلمة المفاسد والرذائل وعلم ان التبعة فى فساد نظام الاجتماع واقع على الرئاسات الدينية والسياسية فوقف حياته على ايقاظ اخوانه فى الانسانية وقضى معظم حياته يدعو الناس الى دينه الجديد (Religion de la bonté) وأساسه ايجاد رابطة المحبة والشفقة بين الناس وعدم مقابلة الشر بمثله ولذا نرى أن روح هذا المبدأ تتجلى فى أغلب كتبه وتعاليمه التى تكاد تنطق بلسان واحد هاتين الكلمتين وهما :

(١) أحبوا بعضكم بعضا

(٢) لاتقابلوا الشر بمثله

مقارنة بينه وبين أبى العلاء ـ ذهب بعض كتاب أوربا الى وجود الشبه بين تولستوى وبين روسو وعزز رأيه بأدلة لامحل لذكرها فى هذه المقدمة الوجيزة وانا نرى أنه من الظلم أن نختم مقدمتنا دون أن نذكر مارأيناه من وجوه الشبه بين حياة صاحب الترجمة وحياة أبي العلاء المعرى المولود سنة ٩٧٣م . فكلا الرجلين عاش زاهدا فى الحياة وكلاهما ناله من اضطهاد رجال الدين

مانغص عليه عيشه وضيق دونه المذاهب ولكلاهما آراء فى الحياة ونظرات فى الاجتماع تتفق معني ومبنى

اشتهر تولستوى بزهده فى الحياة وتخليه عن مظاهر الوجاهة على نحو مامر بك فى مقدمتنا هذه ، كذلك كان أبو العلاء زاهدا فى الحياة متخليا عن ملذاتها يردد قوله :

أتتنى من الايام ستون حجة   وما أمسكت كفاى ثنى عنان
ولا كان لى دار ولا ربع منزل   وما مسني من ذاك روع جنان
تذكرت أنى هالك وابن هالك   فهانت على الارض والثقلان

الا إنهما وان زهدا فى كل لذات الحياة فقد رغبا فى العلم والتأليف اللذين قد ملكاهما واستأثرا بهما ولا شك ان ذلك كلفهما معاشرة الناس ومجاملتهم الى حد معلوم فان أبا العلاء كان مضطرا الى عشرة الناس لاحتياجه الي من يقرأ له ويكتب عنه ولذلك لم يكد يستقر فى المعرة حتى اشتغل بالتعليم فالتف حوله الطلاب من جميع الاطراف . كذلك كان تولستوى مضطرا لمجاملة زواره العديدين الذين كانوا يقصدونه من أقاصي البلاد يلتمسون الاستفادة من فلسفته وآرائه .

وصف الرحالة ناصرى خسرو أبا العلاء المعرى بقوله «ويحكمها (أى المعرة) رجل ضرير يعرف بأبي العلاء عظيم الثروة

يملك عددا ضخما من العبيد وكان سكان المدينة كافة خدمه أما هو فيحيا حياة خشنة يلبس غليظ الصوف ولا يغادر بيته ولا يأكل الا الشعير وسمعت الناس يتحدثون بأن بابه لا يغلق وأن نوابه يعملون فى تدبير المدينة ولا يلجأون اليه الا فى مهام الامور الخ » ولو صح هـذا الوصف وهو ماأثبت احتماله العلامة طه حسين فى كتاب (ذكرى أبى العلاء) صحيفة ٢٣٠ بقوله : «فمن الظلم للتاريخ أن نمر بهذا الخبر من غير أن نثبت هذا الاحتمال» لكان مشابها للمعيشة التى كان يعيشها الفيلسوف تولستوى فى قريته بين فلاحيه ومريديه(١)

---

(١) لم نجد فى كل التواريخ التى ترجمت تاريخ حياة أبى العلاء مايحقق قول الرحالة أو يثبت احتمال الاستاذ طه حسين فقد أجمع الكل على أنه كان فقيرا لا يملك من عرض الدنيا غير القليل التافه وقد رفض هبات الملوك واعطيات الامراء وعاش قانعا باليسير إذ كان له وقف يحصل منه فى العام على ثلاثين دينارا قدر منها لمن يخدمه النصف الا اننا مع ذلك لا ننكر ما كان لاسرته التنوخية من الوجاهة وما كان لا بى العلاء نفسه من المكانة فى نفوس أمراء عصره وقد ذكر الذهبي نقلا عن القفطى « ان صالح ابن مرداس صاحب حلب خرج الى المعرة وقد عصى عليه أهلها فنازلها وشرع فى حصرها ورماها بالمجانيق فلما أحس أهلها بالغلب سعوا الى أبي العلاء بن سليمان وسألوه أن يخرج و يشفع فيهم فخرج ومعه قائد يقوده فاكرمه صالح واحترمه ثم قال ألك حاجة قال : الامير أطال الله بقاءه كالسيف القاطع لان مسه وخشن حده وكالنهار المبالغ (؟) قاظ وسطه وطاب برده خذ العفو ومر بالعرف واعرض عن الجاهلين . فقال له صالح قد وهبتها لك »

كان تولستوى يرى أن نظام الاجتماع فاسد يحتاج الي اصلاح وأن فساده ناجم عن الرئاسات الدينية والسياسية كذلك كان يرى أبو العلاء وصرح بهذا الرأى غير مرة فى اللزوميات وسقط الزند فمن ذلك قوله :

ساس الانام شياطين مسلطة
فى كل مصر من الوالين شيطان

وكذلك قوله :

مل المقام فكم أعاشر أمة
أمرت بغير صلاحها امراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

رأي تولستوى فى المرأة قبيح لانه يسيء الظن بها فى كل أطوارها ويرى أن تقطع كل علاقة بينها وبين الحياة العامة فمن ذلك قوله : «على الرجل أن يراقب سلوك امرأته ولا يطلق لها العنان بل يحجبها فى البيت والبيت دائرة حرية واسعة للمرأة» وقال فى موضع آخر فى الزواج(ان الزواج أصبح فى عصرنا هذا بيننا محض خداع وغش ولكنه لايزال يوجد عند أولئك الذين يرون فيه سرا من أسرار الدين كالمسلمين والصينيين والهنود أما نحن فلا نرى

فيه غير تلك المقارنة الحيوانية »

ولأبى العلاء رأى فى المرأة كثير المطابقة لرأى تولستوي فهو كثير الظن بها ويرى أن تعيش بمعزل عن الحياة العامة وتشدد فى طلب الحجاب كما أشار فى قوله :

علموهن النسج والغزل والرد
ن وخلوا كتابة وقراءه

وكذلك قوله :

لحمل مغازل النسوان أولى
بهن من اليراع مقلمات

ومنه قوله في التائية :

ولا ترجع بإيماء سلاما
على بيض أشرن مسلمات
أولات الظلم جئن بشر ظلم
وقد واجهننا متظلمات
فوارس فتنة أعلام غى
تقينك بالأساور معلمات

ذكرنا آنفا كيف أن تولستوى نبذ الاعتقاد القائل بالاستثمار الشخصى وأراد أن نقسم أملاكه بين فلاحيه ويشتغل كواحد منهم

فكانه بذلك يعزز رأى أبى العلاء القائل :

كيف لا يشرك المضيقين فى النعمة قوم عليهم النعماء

واقواله فى هذا المعنى كثيرة يقف عليها القارىء فى أكثر (لزومياته)

الى هنا ننتهى من المقارنة بين افكار بطلى القرن التاسع والقرن العشرين بعد الميلاد ، والى هذا الحد نكون قد أنجزنا ما وعدنا به القارىء من ترجمة حياة فيلسوف روسيا العظيم (الكونت لاون تولستوى) الذى أفل نجم حياته فى ٢٠ نوفمبر عام ١٩١٠ ليكون على بينة من تاريخ حياة أحد رجال العالم العظماء الذين أفادوا النوع الانسانى بأفكارهم الصالحة وسيرتهم المبرورة وسريرتهم الطاهرة

* * *

قصيدة أمير الشعراء احمد شوقى بك فى رثاء الفيلسوف

(تولستوى) تجرى آية العلم دمعها
عليك ويبكى بائس وفقير
وشعب ضعيف الركن زال نصيره
وما كل يوم للضعيف نصير
ويندب فلاحون أنت منارهم
وأنت سراج غيبوه منير

يمانون فى الاكواخ ظلماً وظلمة
ولا يملكون البث وهو يسير
تطوف كعيسى بالحنان وبالرضا
عليهم وتغشى دورهم وتزور
ويأسي عليك الدين اذ لك لبه
وللخادميه الناقمين قشور
أيكفر بالانجيل من تلك كتبه
أناجيل منها منذر وبشير
تناول ناعيك البلاد كأنه
يراع فى راحتيك له صرير
وقيل تولى (الشيخ) فى الارض هائماً
وقيل بدير الراهبات أسير
وقيل قضي لم يغن عنه طبيبه
وللطب من بطش القضاء عذير
اذا أنت جاورت (المعرى) فى الثرى
وجاور (رضوى) فى التراب ثبير
وأقبل جمع الخالدين عليكما
وغالى بمقدار النظير نظير

جماجم تحت الارض عطرها شذى
خباهن مسك فوقها وعبير
بهن يباهى بطن (حواء) واحتوى
عليهن بطن الارض وهو فخور
فقل ياحكيم الدهر حدث عن البلى
فأنت عليم بالامور خبير
أحطت من الموتى قديما وحادثا
بما لم يحصل منكر ونكير
طوانا الذى يطوى السماوات فى غد
وينشر بعد الطى وهو قدير
تقادم عهدانا على الموت واستوى
طويل زمان فى البلى وقصير
وهل عالج الاحياء بؤسا وسقوة
وقل فساد بينهم وشرور
قم انظر وأنت المالىء الارض حكمة
أ اجدى نظيم أم أفاد نثير
أناس كما تدرى ودنيا بحالها
ودهر رخى تارة وعسير

وأحوال خلق غابر متجدد
تشابه فيه أول واخير
تمر تباعا فى الحياة كأنها
ملاعب لا ترخى لهن ستور
وحرص على الدنيا وميل مع الهوى
وغش وافك فى الحياة وزور
وقام مقام الفرد فى كل أمة
على الحكم جمع يستبد غفير
وحور قول الناس مولى وعبده
الى قولهم مستأجر وأجير
وأضحى نفوذ الناس لا أمر فى الورى
ولا نهى الا مايرى ويشير
تساس حكومات به وممالك
ويذعن اقيال له وصدور
وعصر بنوه فى السلاح وحرصه
على السلم يجرى ذكرها ويدير
ومن عجب فى ظلها وهو وارف
يصادف شعبا آمنا فيغير

ويأخذ من قوت الفقير وكسبه

ويؤوى جيوشا كالحصى ويمير

ولما استقل البر والبحر مـذهبا

تعلق أسـباب السماء يطير



الحكاية الاولى

بم يعيش الناس

كان سيمون صانع أحذية لا يملك من الارض قيد شبر، وكان يقطن كوخا لاحد الفلاحين ويعيش من كسب يده . لقد كان العمل إذ ذاك كاسدا وحركته خامدة، وزاد الطين بلة أن سبل العيش كانت مجهدة ونار الغلاء متأججة فى كل حاجيات الحياة لذلك كان كل ما يقبضه سيمون ثمنا لعرق جبينه ينفقه فى سبيل الحصول على قوت يتبلغان به هو وزوجه . لم يكن لذلك الشيخ وزوجه الا غطاء جلدى يتقاسمانه سويا ليدفع عنهما قر الشتاء، ولقد استنهرت فتوق ذلك الغطاء فكان هذا هو العام الثانى الدى احتاجا فيه الى شراء غطاء آخر . لذلك خرج سيموز متوكئا على عصاه موليا وجهه شطر القرية حيث يمكنه أن يجمع من بعض القرويين ماهم مدينون به من النقود . فوفى له بعضهم وأمهله البعض ونقد أحدهم عشرين كوبكا (١) فلم يكن ذلك المبلغ كافيا لشراء الغطاء ولكنه كافيا لان يدفعه سيمون ثمنا لبعض كؤوس من الفوتكا (٢) : بعدئذ قفل

---

(١) الكوبك عمله روسية قيمتها $\frac{1}{100}$ من الروبيل الرومى أى أنها تساوى مليما (٢) شراب روسى

راجعا الى منزله كسير القلب وأخذ يهذى فى طريقه تارة عن غضب زوجه وسخطها عليه وآونة يخاطب القروى الذى أعطاه عشرين (كوبكا) قائلا : «قف قليلا ! وانقدنى كل ما أنت مدين به . انك اعطيتنى عشرين (كوبكا) فقط وادعيت الفاقة ولكن ماذا يهمني وماذا عساي أن أفعل بهذا المبلغ ، انك تملك دورا وماشية وأما أنا فلا أملك الا ما أسد به الرمق . انك تملك الحقول الغنية بالحب والثمر وأما أنا فاشتري كل حبة من قوت يومى . انك تستزيد من كل شيء وأما أنا فاحتاج الى أقل شيء فانت مترف ذو نعمة وأنا شقى ذو متربة اذن يجب أن تدفع . هلم لا تتردد» وما وصل من هذيانه الى هـذا الحد حتي كان قد انتهى الى معبد مقام عنـد منعطف الطريق ، فنظر واذا به يرى شبحا أبيض يلوح وراء المعبد فلم يتبينه تماما لأن ظلام الليل أخذت تطارد جيوش النهار من تلك البطاح والوديان ثم أخذ يسائل نفسه : «ماعسى أن يكون هذا الشبح ؟ انه حجر أبيض . ولكنى لم أشاهد هنا حجرا قبل الآن . ألا يكون نورا إذن ؟ ولكن لا . فان رأسه تماثل رأس الانسان الا أنهـا ناصعة البياض وما عسي أن يفعل الانسان هنـاك . » ثم اقترب من الشبح قليلا قليلا حتى تجلت أمامه حقيقته وزال ماخامر فؤاده من الريب .

ماذا رأى ؟ رأى رجلا عارى الجسد جالسا بانحناء وراء المعبد

لادراكه به ، فتوجس سيمون من نفسه خيفة وهاله ذلك المنظر وظن أن أحد القرويين ظفر به فقتله ثم تركه فى تلك البقعة . فأوسع خطاه وسار من أمام المعبد حتى لا يمر بالشبح ، ثم حانت منه التفاتة الى الوراء فرأى الرجل يتبعه بنظراته فدب فى قلبه دبيب من الرعب والاشفاق وأخذ يفكر فيما اذا كان يرجع اليه يستقصى خبره ويستفسر عن حاله أو يستمر فى طريقه ، فآثر الاخرى وظن أنه ان دنا منه فهو ليس بناج من شروره وأيضا فهو غير قادر على اغاثة رجل عارى الجسد !

ماخطا سيمون بضع خطوات حتى شعر بتقريع الضمير وأخذ يسائل نفسه : «ماذا أنت فاعل ياسيمون ! أتهرب من إغاثة ملهوف ربما كان على شفا الموت ، أتعدو خوفا من أن تساعد نفسا ربما كانت تلفظ آخر أنفاسها ؟ إنه من العار أن يقال عن سيمون أنه مر فى طريقه ببائس فلم ينجده وملهوف فلم يغثه ، ثم قفل راجعا نحو ذلك الغريب المسكين واقترب منه فلم ينتبه اليه كأنما بلغ به الضعف الى درجة لم يمكنه معها أن يرفع جفنيه أو يدير عينيه وتأمله فرآه فتى فى مقتبل العمر صحيح الجسم لا تشوبه الكلوم ولا تشوهه القروح ثم اقترب منه ثانية فتحرك الغريب وأدار رأسه الابيض وفتح عينيه الفاترتين والقى نظرة على وجه سيمون فكانت كافية لان

تبعث فى قلبه الرحمة على ذلك الغريب وتملأ فؤاده رفقا وحنانا على هذا البائس المسكين .

ثم البسه بعض ثيابه وأمره بالحركة حتى يتمشى الدم بين أعضائه وبدأ فى المسير فأخذ سيمون يسأله « من أين أنت ؟ وما الذى حدا بك الى هذا المكان ، أطرقتك بوائق الاحداث أم هل وصلت اليك أيدى المسيئين حتى دفنت حيا بين طبقات الجليد المتجمدة ؟ فاجابه قائلا « اني غريب عن هذه الديار ولم يسىء الى أحد ما ولكنه عقاب الله حق على » فاجاب سيمون :

ـ « يجب أيها الصديق أن تقابل ذلك بالرضاء والتسليم والله رب الكل، بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير، والا ن أى جهة تقصد » .

ـ « كل الجهات عندى سواء » ، فبدرت على سيمون علامات الاندهاش لأن الرجل لم تكن هيئته تشف عن خبث ولم يدل مظهره على أنه من السفلة — واستمر سيمون فى حديثه قائلا : « هلم معى إذاً الى المنزل ربما تدفىء نفسك قليلا » ثم سارا سويا وأخذ سيمون يهيم قائلا : « انى ذهبت لشراء الغطاء فعدت الى منزلى بدونه وزيادة على ذلك أحضرت معى رجلا عاري الجسد : ان ماترونيا (١) ليغلى مرجل حقدها عند ماتعلم ذلك » وكان كلما

---

(١) زوجة سيمون

عاودته ذكري زوجته يطرق برأسه عابسا ولكنه كلما تذكر حالة ذلك المسكين ونظراته المؤلمة عاودته بشاشته وطفح ثغره فرحا وسرورا

أما (ماترونيا ، فقد أنهت كل واجباتها المنزلية فى ذلك الصباح وجلست تفكر فى زوجها وما عسى أن يكون قد فعل واذا بها ترى رجلين مقبلين أحدهما سيمون والآخر غريب لم تعرفه فدار بخلدها لأول وهلة أن زوجها احتسى بعض كؤوس من الخمر وما الآخر الا من أعوانه السكيرين ، ثم بدأت تصخب ولكنها انتظرت ريثما ترى ماذا يصنعان : دخل سيمون منكس الرأى خجلا ثم تبعه صديقه الذى ظل واقفا صامتا لا يبدي حراكا فلم تتردد ماترونيا فى أنه من السفلة الاشرار . أما سيمون فقد خلع قبعته واستوى جالسا على أحد المقاعد كأن المياه مازالت جارية فى مجاريها ولم يحدث شيء يثير غضب زوجه ثم دعا صديقه ليجلس بقربه ففعل . ثم خاطبها قائلا .

ـ « الآن يامترونيا قدمى لنا ماعندك من العشاء » فنظرت اليه شررا وازداد حنقها واجابته « إنى أعددت كل شيء ولكن ليس للسكارى الذين تلعب برؤوسهم الخمر فتخرجهم عن المألوف »

— « ماترونيا ! لاتكثرى من تهديجك وضعى حدا لثرثرتك

يجب أن تعرفى أولا من هو هذا الرجل » فاجابته «إنى لاأشك فى أنه من أبناء الشريرين . فقال : «كلا فأنت مخطئه » فقاطعته قائلة وأين النقود فصمت سيمون فكان ذلك برهانا زاد اعتقادها فيهما وداعيا قويا حرك فيها عوامل السخط فأخذت تقدح من عينيها شررا وتلفظ من فيها كلمات كلها مقت وغضب وحاولت الخروج إلا أنها كانت تود أن تقف على حقيقة أمر الغريب فخففت من حدتها قليلا وانتظرت . . . . ثم ابتدرته قائلة «اذا لم يكن هذا الرجل كما أعتقد فمن يكون ؟ »

— هذا ماأردت أن أوقفك على حقيقته من بادىء الامر فاعلمى أننى عند ماوصلت الى المعبد فى رجوعى من القرية رأيت هذا الرجل جالسا بين طبقات الجليد المتجمدة لاثوب يكسيه ولا دثار يدفع عنه غائلة البرد فأشفقت عليه ودثرته كما ترين ثم آويته الى هنا ولو لم يرسلنى الله فى تلك الآونة لكان قضى نحبه لوقته فخففى من وطأة حدتك واعلمى أنها خطيئة كبرى ياماترونيا وتذكرى أننا سنموت جميعا يوما من الايام » فتمتمت ماترونيا ببعض كلمات يشتم منها رائحة الغضب والقت نظرة على الغريب وظلت صامتة

— ماترونيا : ألا توجد فى قلبك عاطفة المحبة — محبة الله

وما سمعت هذه الـكلمات من زوجها حتى نظرت الى ذلك الضيف الغريب ثانيـة فشعرت بعاطفة الرحمة نحوه وقامت لوقتها وأحضرت البقية الباقية مما عندها من الطعام وقدمته لذلك المسكين الذي دفع عنه نظرة فاترة وابتسامة لطيفة عبرت عما فى نفسه من الشكر والثناء ، وبعد الانتهاء من أكله أخـذت ماترونا تعيد الى مسامعه نفس الاسئلة التى سأله إياها زوجها من قبل فأجابها بمثل ماأجاب زوجها وختم اجابتـه بقوله : « ان زوجك دثرنى وآوانى وأنت أسقيتنى وأطعمتنى فالله يؤتيكما خيرا » ثم باتا وأصبحا فسأله سيمون «ماالذى يمكنك أن تباشره من الاعمال ؟ » فأجابه «ليس بيدى صنعة ما » فاستمر سيمون فى كلامه « ان من يريد أن يعمل فليس من الصعب عليه ذلك » فأجابه «سأتعلم» فبدأ سيمون يعلمه كل يوم درسا من صناعته وكان ميكائيل (١) سريع البديهـة فما مر ثلاثة أيام الا وكان يباشر العمل كأنه به منذ سنين عديدة . وبعد الانتهاء من شغله كان يجلس وعيناه للسماء لايتكلم إلا عند الحاجـة ولا يميل قط الى المجون والمزاح ، قليل الابتسام ، فلم يروه يبتسم الا مرة واحدة ، عند ماقدمت اليه ماترونا العشاء فى أول ليلة من ليالى حياته الجديدة !

---

(١) اسم الغريب

كرت الايام ومرت الاعوام وميكائيل يثابر على العمل مواصلا ليله بنهاره ، حتى ذاع صيته وعلت شهرته بين القرى والربوع المجاورة . وفى ذات يوم بينما هم جالسون فى كوخهم واذا بعربة يجرها ثلاثة من الصافنات الجياد تنهب الارض نهبا وتتقدم نحو كوخهم الحقير وما هى الا بعض ثوان حتى رأوا العربة قد وقفت أمام الكوخ وقفز منها سيد تلوح عليه أمارات الشرف ومخايل النبل ، ضخم الجسم أحمر الوجه ، طويل القامة . فقام سيمون لوقته وفتح باب كوخه على سعته ثم وقف محييا ذلك الزائر العظيم منحنيا أمامه بكل تؤدة واحترام فقال السيد بكبر « من رئيس العمل فى هذا الكوخ » فأجابه سيمون : « أنا ياصاحب العظمة » ثم أمر الشريف خادمه أن يحضر الجلد فأتى به ووضعه على خوان فى وسط الكوخ وبعدئذ وجه السيد كلامه الى سيمون قائلا ألا ترى هذا الجلد » فأجاب : « نعم ياصاحب الشرف إنه فى غاية الجودة » فقال الشريف بحدة « يالك من أبله أحمق ! أو تشك فى ذلك ، إنه ذو قيمة عالية وأريد أن تصنع لى منه حذاء على شرط أن يمكث حولا كاملا حافظا لرونقه وشكله أتقدر ؟ فاضطرب سيمون قائلا « نعم يمكننى ياصاحب النبل » فصاح فى وجهه ذلك السيد « يمكنك يدبر . يجب أن تعلم لمن ستصنع الحذاء فان لم يكن كما أمرت سأودعك

غيابة السجن ! » فانتفض سيمون فرقا وخوفا وتلعثم لسانه وهمس الى ميكائيل يطلب مساعدته فى ذلك المأزق فأومأ اليه برأسه علامة للرضاء فقبل سيمون العمل ، ثم هم الشريف بالانصراف فودعه سيمون بمثل ما قابله به من التجلة والاحترام . ومما يجدر بالذكر مالاحظه سيمون أثناء وجود الشريف بالكوخ من أن وجه ميكائيل كان يتهلل بشرا وعينيه تتطلعان الى ما وراء السيد شاخصتين كأن أمامه شبحا أو طيف خيال ، فكان ذلك موضع دهشة سيمون وعجب ماتروينا !

ثم قال سيمون لصديقه : « هيا ابدأ فى العمل أيها الصديق وحذار من الوقوع فى الخطأ فان السيد كما رأيت سريع الغضب » فبدأ ميكائيل فى صنع الحذاء ولكنه أدهش بعمله ماتروينا اذ رأته يهيء الجلد ويخيطه لا على شكل باقى الاحذية ولكنه على شكل خفاف رقيقة فأسرت ذلك لزوجها الذى ما كاد يراه حتى استولى عليه الذهول وابتدره قائلا « ماذا تصنع أيها الرفيق ! أنت يامن مكثت معى حولا كاملا بدون أن تزل أو تخطىء أتقترف فى دقيقة واحدة أعظم الاغلاط . . » وأراد أن يستمر فى تأنيبه واذا به يسمع وقع حوافر جواد فصمت ورأى القادم فاذا هو خادم السيد يقول !« عموا صباحا أيها الرفاق ، إنى أتيت لاجل الحذاء »فدهش

سيمون واستمر الخادم فى حديثه « نعم الحذاء ؟ فأن سيدى ماكاد يفارقكم حتى فارقته الحياة وأخرجناه من العربة جثة هامدة والآن فقد جئت لاعلمكم أن تصنعوا هذا الجلد خفافا للسيدة » فبهت سيمون ثم تهلل وجهه وأقبل الى ميكائيل يقبله فرحا مسرورا ، ثم أعطياه الخفاف فانصرف

مر العام إثر العام وميكائيل عائش الآن فى السنة السادسة من حياته الجديدة لا ينطق الا عند الضرورة ولم تعل الابتسامة شفتيه الامرتين فى خلال هذه المدة الطويلة ، وفى ذات يوم بينما هم قعود يشتغلون ، كل فى عمله واذا بأحد أولاد سيمون صرخ مخاطبا ميكائيل « عماه ، هيا انظر فان امرأة معها طفلتان مقبلة نحونا » فنظر ميكائيل من أحدى شرفات الكوخ فرأى سيدة معتدلة القوام حسنة الهندام يرافقها طفلتان تتقدم نحو الكوخ

دخلت السيدة فقام سيمون مستقبلا اياها ومرحبا بها ثم سألها الجلوس ففعلت وقال لها « إن السرور ليشملنى اذا أمكننى القيام بما تامريننى به » فأمرت بعمل حذاءين للطفلتين فأجابها سيمون الى طلبها . وفى تلك الآونة نظر سيمون الى ميكائيل فرأى عينيه محدقتين بالطفلتين لا يحول عنهما نظره كأنه يعرفهما من قبل فدهش ولكنه لزم الصمت

ثم ابتدأت ماتروينا تسأل تلك السيدة قائلة : « يظهر أن ابنتيك توأمتان » فأجابتها « أجل انهما لكذلك ولكنهما ليستا طفلتي ولا تربطني بهما رباط صلة أو قرابة » فتعجبت ماتروينا وقالت « عجبا ! إنهما ليستا طفلتيك ثم مع ذلك تشفقين عليهما هذه الشفقة وتظلليهما بأجنحة عطفك وحنانك » فقالت السيدة «أو كيف لا أشفق عليهما وقد أرضعتهما من ثديي » ثم استمرت المرأة في الحديث وأخذت تسرد مجمل حكاية هاتين الطفلتين فقالت « لقد اختطفت يد المنون روح والديهما منذ ست سنين في أسبوع واحد فأودع الاب رمسه يوم الثلاثاء وعلى أثره بثلاثة أيام فاضت روح تلك الام وانتقلت الى دار الخلود أما هاتان الطفلتان فقد ولدتا يوم الخميس الموافق لليوم الثالث من موت والدهما ولليوم الاول من أيام الاسبوع الذى تركتهما فيه أمهما وديعة عند رب العالمين . مسكينة امهما : فقد كانت فقيرة وحيدة ليس لها في الحياة من يأخذ بناصرها ويقاسمها عزلتها وشقاءها . ومن ذلك اليوم، يوم الخميس أصبحت هاتان الطفلتان اليتيمتان غريبتين عن العالم أجمع لا تربطهما بأهله أواصر الصلة أو القرابة

لقد كنت أنا وزوجي مقيمين في ذلك الحين في القرية وكانت تربطنا بوالدى الطفلتين رابطة الجوار وقد ذهبت لأزور

تلك المسكينة في صباح أحد الايام فما كدت أخطو بضع خطوات حتى وجمت ذعرا وهالني مارأيت : نعم إنها لساعة رهيبة مخيفة ! رأيت الام ملقاة على الارض فدنوت منها فاذا هى جثة هامدة تعلو وجهها صفرة الموت وحولها طفلتان فى المهد تصيحان وتعولان كأنهما علمتا برزئهما فأخذتا تناديان أمهما النداء الأخير وتسمعانها صوت بكائهما قبل فراقها الأبدى . . وهكـذا فى ساعة ولدتهما وفى ساعة فقداها .

بعد ذلك انتشر الخبر فتقاطر القرويون الى ذلك الكوخ المشئوم وعنوا بجثة الفقيدة ووضعوها فى الكفن ثم واروها فى التراب وعيونهم دامعة وقلوبهم يدميها الحزن والأسى — انهم لقوم محسنون

لم يكن للطفلتين نصـير كما ذكرت فتكفلت بهما وتعهدت بتربيتهما ولم يكن لى في الحياة سوى طفل صغـير اعتبطه الموت فكم كنت أشعر بالوحدة لو لم يكن هاتان الطفلتان بجانبي وكم يزداد حبي لهما فهما زهرة حياتى ونضرتها »

وبعد أن انتهت من حديثها ضمت اليها بيمينها احدى الطفلتين ومسحت بيسارها عبراتها المنسجمة فتنهدت ما تروينا وقالت حقا لقد صدق المثل القائل . « إن الانسان يمكنه أن يعيش بلا أب أو أم ولكنه لا يمكنه ذلك بدون رحمة الله »

ثم ساد السكوت وانبثق نور وضاء من الركن الذى كان فيه ميكائيل وأنار كأنه ضوء الشمس القوى فى الصيف فنظروا اليه فاذا هو جالس ويداه على منكبيه وعيناه تتطلعان الى السماء ووجهه يتلألأ وثغره يبتسم .

ماذهبت المرأة بطفلتيها حتى قام ميكائيل وانحنى أمام سيمون وقال « الوداع ؛ الوداع ! لقد غفر لي ربى ولم يبق الا أن أسألك عفوك ان كنت هفوت أو أذنبت » ثم تلألأت غرته وعلا وجهه غطاء نورى فانحنى أمامه سيمون قائلا عفواً ياميكائيل فانك لست بشرا سويا وانا ليس فى قدرتى أن أرغمك على القيام عندي أو أتجاسر أن أسألك أكثر مما أريد أن تجيبني عنه الآن انك ابتسمت ثلاث ابتسامات فأشرق النور من محياك فخبرنى أيها الصديق عن سر ذلك الابتسام ومبعث هذا النور الوهاج فأجاب ميكائيل : ان الله أرسلنى لأتعلم ثلاث حقائق وقد أتممتها فابتساماتى الثلاث مظاهر الفرح الذى ملأ قلبي : أما النور فينبعث منى لأن الله غفر ذنبى وسامحنى فقال سيمون : ولم عاقبك الله ؟ وما هى تلك الحقائق التى بعثت لمعرفتها فأجابه « انى كنت ملكا فى السماء فخالفت أمر ربي إذ أرسلنى لأقبض روح امرأة من عباده فهبطت الى الارض واذا بى أراها مسكينة هزيلة قد وضعت لوقتها توأمتين فلما رأتني فقهت

كنه حقيقتى وعرفت أنى أتيت فى طلب روحها فأجهشت بالبكاء وبصوت تقطعه الغصات المعيقة توسلت قائلة : «أيها الملاك الطاهر رفقا بامرأة ضعيفة كسيرة القلب قتل زوجها وحرمت من كل نصير لها فى الحياة . أنا غريبة عن العالم أجمع فأمهلني ريثما تترعرع هاتان اليتيمتان وبعدها أموت راضية مطمئنة بربك لا تعجل ساعة يتمهما لحياة الطفل بأمه» فرجعت الى ربى وبلغته رسالتها فأمرنى أن أهبط ثانية وأستل روحها وبعد أن أديت ماأمرت به أردت الصعود واذا بأجنحتى تسقط وريح شديدة تصدنى فوقعت بجانب الطريق . فعلم سيمون ومارونيا حقيقة هذا المخلوق الذى شملاه بعطفهما وحنانهما طول هذه المدة ثم بكيا روعة وجلالا . أما الملك فأخذ يقص قصته وهو يقول : «لقد هبطت الى الارض وأنا لاأعرف مايعترى الانسان من حر وبرد فكدت أموت جوعا وكادت أعضائى تصير قطعة من الجليد ولكني لم أدر ماذا أفعل ، ذهبت الى المعبد لآوى اليه فوجدته موصداً فجلست بجانبه واتكأت على جدرانه اتقاء من العاصفة الشديدة وبينا أنا كذلك أشعر بألم الجوع والبرد إذ مر على أول مخلوق أرضى وقعت عليه عينى منذ صرت رجلا أشعر وأتألم . تمثلت أمامى صورته فرأيت فيها قبح النظر متجسما وظننت أن الله لم يخلق أفظع منه شكلا

فحولت بصري عنه وأما الرجل فما كاد يراني حتى استولى عليه الرعب وسار من طريق آخر حتى لا يمر بي فملأ اليأس قلبي ولكني مالبثت أن رأيته راجعا نحوي ونظراته تنم عن حب كامن وعطف مستتر فدثرني بثيابه وآواني الى منزله حيث قابلتنا زوجته وعيناها تقدحان شررا وغضبا ولكنها مالبثت أن خففت من حدتها وعطفت علي فقدمت لي الطعام وكؤوس الشراب وإذذاك اتممت الدرس الأول من دروسي وتعلمت احدى الحقائق الثلاث وهي : ماذا يكمن في الانسان فعلمت أنها «الرحمة» وحدها

جاء السيد بعد ذلك بعام واحد فأمر بعمل حذاء لا يبلى قبل مرور حول كامل ورأيت وراءه رفيقي ملك الموت فعلمت أن الشمس لا تغرب حتى تغرب حياة ذلك السيد وإذذاك وقفت على سر الحقيقة الثانية وهي : «ما الذي لم يحط به الانسان علما » فعلمت أنها «حاجيات نفسه» وهنا ابتسمت ابتسامتي الثانية إذ لم يبق أمامي الا الدرس الاخير وليس بيني وبين ملكوت السموات الا فرج الله النهائي ظللت عائشا معكم أنتظر مشيئة الله الى أن أتت التوأمتان فعرفت الطفلتين ولما سمعت كيف عاشا الى هذا الوقت وتذكرت قول أمهما (ان الطفل لا يعيش بدون رحمة أمه وعطفها عليه) تحققت بطلان هذه الدعوى ولما تساقطت الدموع من عيني تلك

المرأة — دموع الرأفة والرحمة — وضمتهما الي صدرها الممتلىء عطفا وحنانا عرفت أن فى قلبها عاطفة سامية هى عاطفة (الرحمة) التى هى سر الحقيقة الاخيرة وهى . (بم يعيش الناس)

انى لم أظل حيا لانى أخذت الحيطة لنفسى بل لأن الله قيض لى انسانا منحنى بعض مافى نفسه من (الرحمة) فشملانى هو وزوجته بعطفهما وحنانهما . كذلك اليتيمتان بقيتا تستنشقان نسمات الحياة الى هذا الوقت لاباعتناء أمهما ولكن لأن عاطفة الرحمة تحركت فى قلب امرأة غريبة عنهما فعنت بأمرهما وبكت من أجلهما . فالعالم كله والناس أجمعون لا يعيشون فى هذا الكون بمحض تدبيرهم وارادتهم وبما يعملون لحفظ كيانهم فحسب ولكنهم يعيشون بعاطفة الرحمة التى أودعها الله فى الانسان فهى التى تحفظ فيهم حرارة الحياة

« ان من يرحم فقد تقرب الى الله لانه هو الذى خلق فيه الرحمة »

وبعد ان أتم ميكائيل قوله غنى انشودة الهيبة فاضطرب الكوخ وخر سيمون وأهله مغشيا عليهم . ثم فتح السقف من فوقهم وظهرت الأجنحة على ذراعى الملك ثم صعد عمود من الدخان الي السماء وهكذا ارتفع الملك الي عرش ربه ولما ثاب سيمون الى رشده وجد كوخه كما كان والتفت يمنة ويسرة فلم ير الا اسرته الاولى

— ٦ —

مشرب سورات[1]

عجبت لكسرى وأشياعه
وغسل الوجوه ببول البقر
وقول النصارى إله يضا
م ويظلم حيا ولا ينتصر
وقول اليهود إله يحب
رسيس النساء وريح القتر
وقوم أتوا من أقاصى البلا
د لرمى الجمار ولثم الحجر

(١) قد ترجم صديقنا احمدافندى شاكر الكرمى هذه القصة ونشرها فى كتابه الكرميات تحت عنوان الفلسفة الشرقيه ونسب وضعها الى برناردين دوسانت بيير وقد غمط بذلك حق تولستوى لانها من وضع تولستوى ولكنها مقتبسة من أصل فرنسى للكاتب المذكور وقد نقلها حضرته عن الانجليزية من كتاب Twenty three tales from Tolostoy وهو نفس الكتاب الذى ننقل منه هذه القصص وقد لاحظت عليه انه ترك اسطراً منها بدون ترجمة فضلا عن انه اهمل كثيراً فى ترجمة كثير من الجمل ولذلك لم نر بدا من اعادة ترجمتها فى كتابنا هذا خدمة للحقيقة

فوا عجبا من مقالاتهم
أيعمى عن الحق كل البشر
« المعرى »

كان فى مدينة سورات فى الهند مشرب يجتمع فيه الكثير من الغرباء السائحين وأهل الأسفار المتجولين من مختلف الاقطار للسمر والحديث . وقد اتفق أن رجلا فارسيا من علماء اللاهوت أم هذا المشرب فى أحد الايام وكان قد صرف أيام حياته يدرس كنه الاله وحقيقته . غير تارك بحثا كتبه الاولون فى ذلك الموضوع الا قرأه وكتب عنه وما زال هذا شأنه يفكر ويقرأ ويكتب حتى سلب عقله واضطربت عقيدته وانتهى به الامر الى انكار وجود الخالق ثم اتصل خبره بالشاه . ملك فارس فأمر بأن ينفى من مملكته

لم يجن المسكين أى ثمرة من مجهود بحثه ودراسته فى المسبب الأول وبدل أن يفهم أنه فقد عقله سلك سبيل انكار وجود ارادة عليا مسيطرة على عالمنا الارضى

كان لذلك العالم عبد اسود يتبعه حيثما سار ، فلما ولج باب المشرب جلس العبد على حجر خارج الباب تحت أشعة الشمس واخذ يضرب اسراب الذباب التي كانت تطن حوله ، اما سيده فجلس على اريكة مستطيلة داخل المشرب وطلب فنجانا من

الافيون وتجرعه . وبعد ان دب مفعول المخدر فى تلافيف دماغه آخذ يحادث الخادم من خلال الباب المفتوح قائلا :

ـ خبرنى أيها العبد التعس أتعتقد أن هنالك إله أم لا ؟

فأجابه العبد بقوله :

ـ لا ريب فى أن هنالك إله

ثم أخرج نوا من منطقته صنما من خشب وهو يقول

ـ هذا هو الاله الذى حرسنى منذ ولدت . كل انسان فى بلادنا يعبد الشجرة المقدسة التى من خشبها عمل هذا الاله

استرعت هذه المحاورة الدائرة بين اللاهوتى ومولاه انتباه ضيوف المشرب الآخرين وقد أدهشهم سؤال العالم وزادهم جواب مولاه دهشة ، فانبرى برهمى من الحاضرين عند سماعه كلمات العبد وقال

— أيمكن أن تصدق أيها البائس الابله أن الآله يحمل فى منطقة رجل ؛ ليس هنالك الا إله واحد هو برهما هو أكبر من العالم بأسره لانه خالقه . ان برهما هو الاله الاحد القدير ، وباسمه العظيم بنيت المعابد على ضفاف نهر الكنج حيث يعبده الكهنة البرهميون الذين يعرفون دون سواهم الاله الحق . لقد مضت عشرات الالوف من السنين وتوالت الانقلابات تلو الانقلابات

وهؤلاء الكهنة محتفظون بنفوذهم ؛ ذلك لأن برهما الاله الاحد الحق باسط عليهم جناح حمايته .

نطق البرهمي بهذا القول وهو يظن أنه أقنع كل انسان الا أن سمساراً يهوديا من الحاضرين رد عليه قائلا :

كلا ان معبد الآله الحق ليس فى الهند ، وما كان الله ليحمي طائفة البراهمة بل هو رب ابراهيم واسحاق ويعقوب وهو لايحمي سوى شعبه المختار شعب اسرائيل . ان شعبنا وحده هو المحبوب عند الله منذ بدء الخليقة . واذا كنا اليوم مشتتين فى أنحاء الارض فما ذلك الا لأن الله يريد أن يبلونا لانه وعد أنه سيجمع شمل شعبه فى يوم من الايام فى أورشليم ويرجع حينذاك الى البيت المقدس ، أعجوبة الزمن القديم ، مجده السالف وسيكون اسرائيل يومئذ حاكم كل الشعوب

وبعد أن أتم اليهودى قوله انخرط فى البكاء ثم أراد اعادة الحديث لولا أن قاطعه مبشر ايطالي كان هناك بقوله

— ان ماتقوله غير صحيح وانك لتفترى على الله لانه يستحيل أن يحب قومك أكثر من حبه سائر الاقوام ولو كان حقا أنه فضل بني اسرائيل قديما فانه قد مضى تسعة عشر قرنا منذ أن أغضبوه وحملوه على تدميرهم وتفريقهم أيدى سبا فى مناكب الارض ، فلم

يجاب لهم ايمانهم أدنى سعادة . هذا الايمان طوته يد الفناء اللهم الا مابقى منه حقيرا هنا وهناك ، ان الله لايفضل قوما على قوم بل هو يدعو الجميع — من أراد منهم النجاة والفوز — للالتجاء الى أحضان كنيسة روما الكاثوليكية التي لايجد الخارجون عن حدودها خلاصا

كان فى الحلقة قسيس بروتستانتى ، لم يكد يطرق سمعه هذا القول حتى امتقع لونه والتفت الى المبشر الكاثوليكي وقال له « كيف تقول أن الخلاص مختص بمذهبكم ؟ ان الناجين هم الذين يعبدون الله بروح العزم والاخلاص كما نص الانجيل وكما أمرت كلمة المسيح » عند ذلك التفت تركى من الموظفين فى جمرك سوريات كان جالسا يدخن قصبته وقال بروح الانفة المسيحيين .

ـ ان ايمانكما بدينكما باطل لان الدين المسيحي قد نسخ منذ اثنى عشر قرنا بدين محمد الحق . انكما تعرفان ولا شك أن دين محمد الحق مازال آخذا فى الانتشار فى كلتا القارتين ، أوروبا وآسيا ، حتى فى بلاد الصين المتأخرة المظلمة وقد قلتما نفسا كما ان الله نبذ اليهود واستشهدتما على بطلان ديانتهم بذلتهم وعدم انتشار دينهم ، فاعترفا اذن بصحة الدين المحمدى لانه منتشر متفوق . سوف لا ينجو أحد سوى أتباع محمد خاتم النبيين وينجو من أتباعه أشياع

عمر (١) فقط ! أما أشياع على فلا لأن ايمانهم باطل

هنا أراد اللاهوتى الفارسى الذى كان من شيعة على أن يعترض لولا أن ارتفع اذذاك ضجيج الحاضرين من مختلفى العقائد ومتباينى الاديان فقد كان فيهم عدا من ذكرنا مسيحيون من الحبشة ولاميون من التيبت واسماعيليون وعباد نار فتجادلوا واشتدت حدتهم فكان كل واحد منهم يؤكد أن الآله الحق لم يعرف ولم يعبد كما يجب فى غير بلاده الا رجل صينى من أتباع كونفوشيوس كان جالسا جلسة هادئة فى زاوية من زوايا النادى يحتسى كؤوس الشاى وهو مصغ لما يقوله الآخرون ولا ينبس ببنت شفة فلاحظه التركى جالسا هنالك فتقدم اليه يقول :

ـ انك تستطيع أن تثبت ماقلته أيها الصيني الصالح ، انك تحافظ على هدوئك وسكينتك . ولكن اعلم أنك ستؤيد رأيى أـ تجارا من مواطنيك الذين يأتون الى ملتمسين مني المساعدة أخبرونى أن بالصين أديانا كثيرة الا أنكم معاشر الصينيين تعدون دين محمد خيرها جميعها وتقبلون على اعتناقه باشتياق زائد . تفضل اذن وأيد قولى . بين لنا ما اعتقادك فى الآله الحق وفي رسوله ؟

فقال الباقون : نعم . نعم ملتفتين الى الرجل الصينى قائلين له

(١) يريد باشياع عمر اهل السنة والجماعة

ـ ماذا ترى ؟ دعنا نسمع رأيك فى هذه المسألة

عند ذلك أطبق الرجـل الصينى عينه وفكر برهة ، ثم فتحها ثانية وقال بصوت هادىء رزين بعـد أن أخرج يديه من كمه الواسعين وربعهما على صدره

ـ سادتى يخيل الى أن الكبرياء خاصة هى التي تقف حجر عثرة فى سبيل الاتفاق على مسائل الاديان واذا تفضلتم على بالاصغاء فسأقص عليكم حكاية تشرح مسألة هذا الاختلاف

لقد جئت هنا من الصين على ظهر سفينة انكليزية طافت العالم وقد اتفق أن فرغ الماء منا فاضطررنا أن نرسو في سواحل سومطرا الشرقية لنتزود ماء ، فاغتنم بعضنا هذه الفرصة ونزل الى اليابسة ، وكان الوقت ظهرا . جلسنا تحت ظلال صف من أشجار جوز الهند على بعد من احدى قرى الجزيرة ، وقد كنا من أجناس مختلفة ولم يكد يستقر بنا المقام حتى أبصرنا رجلا أعمى يقترب منا وعلمنا بعد ذلك أنه فقد باصرتيه من كثرة تحديقه بالشمس وهو يحاول أن يعرف ماهي لاجل أن يقبض على نورها وقد صرف وقتا طويلا لتحقيق هـذه الامنية بتحديقه المستمر فى الشمس ولكنه لم يجن من ذلك أى نتيجة سوى اصابة عينيه من شدة الضوء حتي أصبح ضريراً . فقال حينئذ يخاطب نفسه.

ـ ان نور الشمس ليس سائلا لانه لو كان كذلك لأمكن صبه من اناء لآخر ولوجب أن يحركه الهواء كما يحرك الماء وليس هو نارا لانه لو كان كذلك لوجب أن يطفئه الماء وليس هو روحا لانه يرى بالعين ولا مادة لانه لا يمكن تحريكه . ومادام نور الشمس غير سائل ولا نار ولا روح ولا مادة فهو لاشيء

على هذا المنوال أخذ في القياس والجدل وكانت النتيجة التي جناها من كثرة احداقه بالشمس وتفكيره فى ماهيتها ان فقد بصره ثم عقله وقد ازداد رسوخا فى عقيدته بعد عماه

وكان مع ذلك الاعمى عبد يقوده فلما وصل به الي الظل أجلسه فى مكان ثم التقط جوزة كانت ملقاة على الارض وشرع فى عمل سراج منها . فلف فتيلة من اليافها ثم عصر منها زيتا فى قشرتها وغمسها فيه وبينما كان العبد عاكفا على عمله تنهد الاعمى وقال له .

ـ ألم أك محقا عند ما اخبرتك أنه لا توجد شمس الا ترى ما أشد الظلام . ومع ذلك فان الناس مازالوا يقولون ان هناك شمسا! اذا كان مايقولونه حقا : فليقولوا الى ماهى تلك الشمس ؟ فقال له عبده

أنا لا أعرف الشمس ولا يعنيني أن أعرفها ، ولكن اعلم ماهو النور وهاقد صنعت لنفسي سراجا استطيع بواسطته ان أخدمك

وان أجد ماأريده فى كوخنا . ثم رفع العبد قشرة الجوز قائلا هذه شمسى .

فضحك لهذا القول رجل أعرج له عكاز ان كان جالسا على مقربة منهما وقال :

ـ انك على مايظهر قضيت كل حياتك ضريرا . لاتعرف ماهى الشمس . انى سأخبرك عن ماهيتها . انها كرة من نار تطلع كل صباح من جوف البحر وتغيب بين جبال جزيرتنا فى كل مساء وكلنا نشاهد ذلك ونراه ولو كنت بصيرا لرأيته أيضا .

فقال صياد كان يستمع حوارهما .

ـ يظهر انك لم تخرج من هذه الجزيرة قط . فلو كنت غير أعرج ولو كنت خرجت الى ماوراء الجزيرة كما أخرج أنا فى قارب الصيد لعلمت أن الشمس لاتغرب بين جبال جزيرتنا ولكنها كما تشرق من المحيط كل صباح تغرب كذلك فى البحر كل مساء ، ان ماأقوله لك حق لانى أراه كل يوم بعينى رأسى . فقاطعه حينذاك هندى من جماعتنا قائلا :

ـ انه ليدهشنى أن يقول رجل عاقل مثلك نظير هذه الترهات قل لى كيف يمكن أن تنزل كرة من النار فى الماء ولاتنطفىء ؟ ان الشمس ليست كرة من نار ، بل هى الاله (ديفا) الذى يركب

مركبة تدور حول الجبل الذهبي (مرد) أبد الدهر وقد يحدث في بعض الاحايين ان الثعبانين الشريرين (واغو) و (كتو) يهاجمان ديفا ويبتلعانه فتظلم الارض إذذاك ولكن كهنتنا يصلون لأجل خلاصه فيخلص. ان الجهال الذين على شاكلتك والذين لم يتجاوزوا حدود جزيرتهم يتصورون أن الشمس تشرق في بلادهم فقط .

وجاء الدور لربان مركب مصري كان حاضرا فقال:

ـ لا انك أنت أيضا مخطيء . فان الشمس ليست إلها ولا تدور حول الهند فقط وحول جبلها الذهبي . انني ركبت كثيرا من البحار فطفت البحر الاسود وسواحل جزيرة العرب وزرت مدغشقر والفليبين فرأيت الشمس تضيء الارض كلها لا الهند وحدها ، وشاهدتها لاتدور حول جبل بل تطلع من أقصى الشرق وراء جزائر اليابان وتغرب في أقصى الغرب وراء الجزر البريطانية وهذا هو السبب في تسمية اليابان لبلادهم (نيفون) أي مطلع الشمس ، انني أعرف هذا حق المعرفة لانني رأيت بنفسي كثيرا وسمعت أكثر من جدي الذي وصل برحلاته الى أقصى تخوم البحار . كان المصري يود أن يستمر في كلامه لولا ان بحاراً انكليزيا من طائفة سفينتنا قاطعه فقال :

ـ أنه لاتوجد بلاد يعرف أهلها الشيء الكثير عن الشمس

وحركاتها كانجلترا . ان الشمس – كما يعلم كل واحد فى انجلترا – لاتطلع من مكان ولا تغرب فى مكان بل هى تدور دائما حول الارض ، ونحن على ثقة من هذا لاننا طفنا العالم فكنا حيثما توجهنا نرى الشمس تبرز للانظار فى النهار وتختفي فى الليل كما هو الحال هنا

ثم أخذ البحار عصا وشرع يخط على الرمل دوائر محاولا ان يصور حركات الشمس فى السموات ودورانها حول الارض الا أنه كان عاجزا عن توضيح ذلك فاشار الى دليل السفينة وقال :

– ان هذا الرجل أكثر منى علما بالامر وهو يستطيع أن يوضحه لكم تماما .

وكان الدليل متوقد الذهن الا أنه كان صامتا منذ البداية ، مصغيا الى كل ماقيل فلم ينبس ببنت شفة حتى دعى للقول فقال والكل مصغ اليه :

– انكم جميعا يخدع بعضكم بعضا وتغشون أنفسكم . ان الشمس لاتدور حول الارض ولكن الارض هى التى تدور حول الشمس وهى فى أثناء دورانها هذا تدور حول نفسها مرة فى كل أربع وعشرين ساعة . وفى تلك المدة لاترى الشمس فى بلاد اليابان والفليبين وسومطرا فحسب بل ترى أيضا فى افريقيا واوروبا وأميركا وكثير من البلاد الاخرى . ان الشمس لاتشرق على بعض

الجبال أو على بعض الجزر أو على البحار حتى ولا على أرض واحدة فقط ، بل هى تشرق على السيارات الاخرى كما تشرق على أرضنا ولو أنكم نظرتم الى السموات فوقكم عوضا عن أن تنظروا الى الارض التى تحت أرجلكم لاستطعتم أن تعرفوا ذلك كله ، ولما تماديتم فى الاعتقاد بان الشمس تشرق عليكم فقط أو على بلادكم وحدها . هذا ماقاله ذلك الدليل العاقل الذى ضرب فى انحاء الارض وأكثر من رصد السموات العلا

ولما بلغ الصيني تلميذ كونفوشيوس الى هذا الحد قال : وهكذا مسائل الاعتقاد والايمان . ان الكبرياء والعناد هما سبب الاختلاف بين الناس كما حصل من اختلاف أولئك القوم فى فهم حقيقة الشمس ان كل واحد فى الارض يريد أن يكون له إله خاص به على الاقل خاص بوطنه وقومه . وكل أمة تريد أن تحصر المعبود الحق فى معابدها وهو الذى لاتسعه السماوات أيستطيع معبد من المعابد أن يضاهى ذلك المعبد العظيم الذى شاده الله ليوحد الناس ويجمعهم على عقيدة واحدة ودين واحد ؟

ان كل المعابد البشرية شيدت على مثال هذا المعبد الذى هو دنيا الله . ان لكل معبد جرن ماء معموديته وسقفه المعقود ومصابيحه وصوره أو دماه ونقوشه وكتب تشريعه وذبائحه ومذابحه ورهبانه

ولكن فى أى معبد من المعابد يوجد جرن للمعمودية يشبه البحر المحيط ؟ وسقف معقود كالسماوات ومصابيح كالشمس والقمر والنجوم ؟ وأى رسوم تماثل الاحياء الطافحة قلوبهم بالحب الذين يعاون بعضهم بعضا ؟ وأين البركات الكنيسية من تلك العطايا الآلهية السهلة الفهم التي يمنحها الله لسعادة الانسان ؟ وأين يوجد قانون ناصع جلى يفهمه كل انسان مثل ذلك القانون المنقوش فى قلوب البشر وضمائرهم ؟ وأى ضحية تساوى انكار الذات الذى يفعله الرجال المحبون والنساء المحبات كل منهما للآخر ؟ وأى مذبح يساوي قلب الرجل الصالح الذى يقبل الله الضحية عليه ؟ ان قربى المرء من الله تكون بقدر سمو اعتقاده به تعالى فكلما سما اعتقاد المرء بالله كلما كان أقرب منه وأدنى لتقليد كماله جل شأنه والتأسى برحمته ومحبته للانسان ، لهذا يجب ان يمتنع ذلك الذى يرى نور الشمس بأسره مالئا أرجاء الكون عن أن يلوم أو يحتقر الرجل الخرافى الذى يرى فى صنمه شعاعا من ذلك النور نفسه ، بل وان يمتنع أيضا عن لوم أو احتقار الملحد الذى هو أعمى لا يبصر شعاع الشمس مطلقا »

هكذا تكلم الصينى تلميذ كونفوشيوس فشمل السكوت كل من فى النادى وكان ذلك آخر العهد بينهم وبين المجادلة فى الاديان والعقائد ؟

— ٣ —

« كم هو نصيب الانسان من الارض »

نهبط بالقارىء الكريم الى قرية صغيرة من قرى بلاد الروس وندخل به احدى أكواخها حيث يرى سيدتين جالستين على مائدة واحدة تتناولان الشاى وتتسامران، احدى هاتين السيدتين وهى الكبرى حضرية يشتغل زوجها بالتجارة وقد جاءت لتقضي بضعة أيام مع شقيقتها القروية الجالسة أمامها ، وبينما هما فى مسامرات لطيفه وحديث شهى أدى بهما الكلام الى المقارنة بين معيشة أهل الريف ومعيشة أهل المدن فاندفعت الحضرية تبين لشقيقتها نضارة الحياة فى المدن ومافيها من الترف والنعيم فى المأكل والملبس والمسكن ثم عددت لها صنوف الملاهى وضروب الرفاهة التى يتنعمون بها . وتدرجت الى وصف أماكن اللهو ودور التمثيل والحدائق والمتنزهات العامة التي يغشونها رياضة للنفس وترويحا للخاطر كل ذلك وشقيقتها القروية ساكتة لاتبدى ولاتعيد . لان تلك كانت قد أفحمتها بذلاقة لسانها ، الا أنها تمكنت أخيراً من تغيير مجرى الحديث قائلة :

ـ أنا قانعة بمعيشتي هذه البسيطة ولو خيرت بينها وبين

معيشتكم لما فضلت سوى مانحن فيه من بساطة ملؤها السعادة والهناء ، لامراء فى ان دخلكم أوفر من دخلنا الا أن طراز معيشتكم يتطلب نفقات كثيرة قد تربو على الدخل ولا يخفى مافى ذلك من سوء العاقبة . فكم من أسر غنية كانت بالامس ترفل فى حلل الرفاهة والنعيم أصبحت اليوم بلا مأوى تسأل الناس قوت يومها فلا تجده أما نحن القرويين فقل أن يوجد بيننا من يعيش عيشة أهل الثراء ولكننا لا نعدم قوت يومنا على أى حال . فاجابتها الكبرى وقد امتلأت غيظا :

ـ كفى ياعزيزتى يحق لك أن تقولى ذلك طالما تجدين لذة بمساكنة العجول والخنازير . ماأبعدكم عن محجة اللطف والكمال أيها القرويون . بل ماأبعدكم عن معرفة مافيه صلاح معاشكم ومعادكم انكم تجهدون أنفسكم صغارا وكباراً دائبين فى العمل ليلا ونهاراً ، صيفاً وشتاء ، ثم تموتون كما عشتم فقراء لا تورثون أولادكم سوى النصب والشقاء .

فأجابتها الصغرى .

حقا ان مانحن فيه من العيش جاف والعمل عندنا شاق إلا أنه لم تتسرب الى ربوعنا مفاسد المدنية ورذائلها بعد وأخلاقنا على سذاجتها خالية من شوائب الاهواء النفسانية ولذا نعيش ماعشنا

فى هـدوء وسلام . ولـكن أنتم فى مدنكم تعيشون فى جو مخاط بالمكر والرياء ، لاتأمن الزوجـة فيـه على بعلها ولا يطمئن الرجل لزوجته . إذا بتم ليلة على وفاق لاتلبثون أن تصبحوا على شقاق . قد يأتى يوم على زوجك فتستغويه احدى الغانيات ـ وما أكثرهن فى المدن ـ فتفقدين إذذاك هنـاءك العائلى ونعيمك المنزلى ، أو يوسوس له الشيطان بمعاقرة بنت الحان فيصبح من مدمنيها فيضل سواء السبيل ، أو يسوقه الطمع الى موائد القمار وهنـاك البلية والدمار

ثم غيرت المرأتان مجرى الحديث وخاضتا فى حـديث آخر خاص بالازياء وكانتا قد أتمتا تناول الشاى فقامتا تستعدان للنوم إذ كان النعاس قد أثقل أجفانهما .

أما رب المنزل (باهوم) فـكان جالسـا على الموقدة يسمع حوار المرأتين طوال تلك المـدة ثم ناجى نفسـه قائلا . « حقا ان شقيقة زوجتى على حق فى بعض ماتقول ، فانا القرويين نعيش ماعشنا فى تعب ونصب ثم يموت الواحد منا كما عاش دون أن يجنى أقل ثمرة من عمله . آه لو كنت أملك قطعة صغيرة من الارض لـكنت الآن هنىء البال قرير العين لاأخاف حتى رئيس الابالسة» . فسمع حديث نفسه ابليس وكان على مقربة منه فابتسم ضاحكا وقد عزم أن ينيله

بغيته ثم يورده موارد الهلكة من حيث أطمعه . وكان بينهما بعد ذلك من الحوادث ماسوف تقرأ خبره فى الفصول التالية :

* * *

أصبح باهوم والطمع يقيمه ويقعده ولاهم له الا امتلاك أرض يصبح فيها صاحب الكلمة المطلقة يأمر وينهى كما يريد . وكان بالقرب من الارض التى يزرع فيها حبوبه قطعة فسيحة من الارض لسيدة من ذوات الاملاك طيبة القلب لينة العريكة اعتادت أن تعامل جيرانها باللطف والانسانية ، الا أنه عرض لها أمر ذو بال ألهاها عن تعهد الارض بنفسها فوكلت أمر زرعها واستغلالها لوكيل أشغالها الذى كان على جانب عظيم من الخشونة وقساوة الطبع فأخذ يذيق ضعاف القرويين جيرانه مر العذاب ويثقل كاهلهم بالغرامات التى كان يفرضها عليهم من حين لآخر . وقد حرص باهوم كل الحرص على منع أسباب التحكك بجاره الغليظ الطبع ولكن رغم ما كان يبذله من الاحتياطات والتحرز كانت بعض ماشيته تتسرب الى المزرعة فيقع بينه وبين الوكيل أخذ ورد ينتهى فى الغالب بغرامة يتحملها المسكين طائعا صاغرا .

أقبل الشتاء ببرده القارس وابيضت ذوائب الجبال وانكمشت الماشية فى زرائبها فارتاح بال (باهوم) وعاش آمنا فى سربه طول

فترة الشتاء ، ثم شاع فى القرية أن السيدة صاحبة المزرعة عزمت على بيع أرضها صفقة واحدة وتلا هذه الاشاعة خبر مؤداه أن صاحب الفندق القائم على الطريق العالية يساومها فى شراء المزرعة فذعر أهل القرية لهذا الخبر وتوجسوا منه خيفة ، لأن صاحب النزل كان أغلظ طبعا من وكيل السيدة فجمعوا جموعهم وتشاوروا فى الامر ، فقر رأيهم على تأليف لجنة تقوم بشراء الارض . فتألفت اللجنة وأرسلت من قبلها وفدا الي السيدة المالكة لشرائها ، فقبلت السيدة ولم تمانع ، الا أن الشيطان أوغر صدور بعضهم على بعض فتخاذلوا وفشلوا فى مهمتهم وأخيرا عزموا على شراء المزرعة قطعا بدل شرائها صفقة واحدة وأن يساوم كل منهم سيدة الارض فى القطعة التي يروم ابتياعها . جرى كل ذلك وباهوم ساكت لايحرك ساكنا ينظر والها الى المزرعة وهى تباع قطعة قطعة الى أن كان ذات يوم وقد سمع ان أحد جيرانه ابتاع من السيدة قطعة من المزرعة تبلغ الخمسين فدانا وقد دفع نصف ثمنها نقدا وتعهد بدفع الباقى اقساطا لمدة سنة ، فناجى نفسه يقول : « الي متي أظل ساكنا والارض تباع » ثم حدث امرأته بآماله وقد خاطبها قائلا .

ـ الا ترين كيف ان أهل القرية يتهافتون علي شراء المزرعة ونحن هنا لانحرك ساكنا ؟ كلا ان هذا لايطاق يجب أن نسعى فى

شراء قطعة من الارض ولو عشرين فدانا على الاقل سيما وأن الحياة أصبحت عبئا ثقيلا بمضايقة هذا الفظ وكيل السيدة .

ثم فكرا كثيرا فى الامر وتصفحا كل وجوه الرأى وأخيرا قر رأيهما على الشراء ولم يكن عند باهوم سوى بضع عشرات من الروبلات فباع مهرة كانت عنده وباع كذلك نصف مالديه من خلايا النحل وبعض أثاث المنزل وأجر اثنين من أولاده فى احدى المزارع لمدة عام ، وأخذ أجرتهما مقدما ثم اقترض الباقى من أحد انسبائه فتوفر لديه جملة من المال يمكنه بها شراء قطعة صالحة من الارض . فذهب الى السيدة وساومها فى قطعة من الارض تبلغ الاربعين فدانا وفيها أجمة صغيرة . واتفق معها على دفع نصف الثمن فورا وتعهد بدفع الباقى اقساطا على سنتين وحرر على نفسه وثيقة بالمبلغ .

* * *

تمت المبايعة وسجلت بمحكمة البلدة ووضع باهوم يده على الارض ثم مضى العام وكان المحصول جيدا فوفى ماعليه من الديون وبذا أصبح يملك قطعة من الارض يجول النظر فيها على فسيحة شتى الالوان كثيرة النماء ؟ وكان كلما مر بأرضه الجديدة رقص قلبه طربا ونظر اليها بغير العين التى كان ينظر اليها من قبل ، فعاش ردحا

من الزمن لا يعكر صفو حياته الا تسرب مواشى الجيران الى الحقل من حين لا خر . فلولا هذا المكر لكان هناؤه أتم الا أنه احتمل ذلك فى مبدأ الامر واكتفى بتحذير أصحاب المواشى، غير أن ذلك التحذير لم يجد نفعا ، فعمد الى التقاضى وأدى به الامر الى مشاكل عديدة أحفظت عليه صدور أهل القرية ، فأخذوا يعادونه سرا وجهرا أو يطلقون مواشيهم ، ترتع فى مراعيه عمدا بعد أن كانت تتسرب من نفسها على غير قصد . ثم هموا مرارا باحراق مزرعته وايصال الاذى اليه بطرق مختلفة مما أدي الى شدة البغضاء واتساع خرق العداء وبذا فقد هناءه القديم وأصبح مشغول البال لا يغمض له جفن ولا يهنأ له عيش

وشاع فى ذلك الوقت أن هنالك أرض زراعية جديدة عرضتها الحكومة للاستثمار وأن الناس من جميع القرى يهاجرون الى تلك الاراضى . ففكر باهوم فى نفسه وقال : «فليهاجر من أراد من أهل القرية أما أنا فلا أبرح مكانى وسوف انتهز هذه الفرصة لتوسيع ممتلكاتى فاشترى بعض الاراضى التي يتركها أصحابها »،

وبينما كان باهوم يمني النفس بهذه الآمال اذ نزل بضيافته قروى كان مارا بعزبته فاكرم باهوم مثواه فسأله أين كان فاخبره القروى أنه كان يشتغل فى جهات (الفولجا) حيث الاراضى التى كانت

تستعمر حديثا هناك وافضي به الحديث الى وصفها والاطناب فى خصوبتها وجودتها زاعما أن الشيلم الذى يزرع فى تلك الاراضى ينمو حتى يصير طوله أعلى من قامة الفرس ثم أتم حديثه قائلا : ان أولياء الامور هناك يتبرعون بخمس وعشرين فدانا لكل من أراد استثمار تلك الاراضى الخصبة وان رجلا من أهل قرية باهوم حضر تلك الجهات صفر اليدين خالى الوفاض فاصبح الآن يملك ستة خيول ورأسين من البقر ،

فقال باهوم فى نفسه ماالذي يمنعنى من هجر هذه البقعة الضيقه الي تلك البقاع الفسيحة حيث الربح الوافر والثراء العاجل وانى لأكونن من الحمقى اذا لم انتهز هذه الفرصة السانحة ولكن على أن أتحقق الامر بنفسى أولا »

كان الوقت شتاء فقعد ينتظر أوائل الصيف حتي اذا حل الربيع كان قد أتم معدات السفر فركب زورقا بخاريا أقله حتى سمارا ومن ثم قطع ثلثمائة ميل على أقدامه حتي وصل المكان المقصود فوجد الارض كما وصفها القروى وعلم أن الفلاح المستثمر يعطى قطعة لاتقل مساحتها عن خمسة وعشرين فدانا وان هناك أرض أخرى معروضة للبيع قيمة الفدان منها لايزيد عن ثلاث روابل ففرح باهوم بهذا الاستكشاف وقفل راجعا الى قريته بعد أن تحقق

صدق الخبر وماوصل اليها حتى شرع فى بيع ممتلكاته وتهيئة مايلزم للمهاجرة هو وأفراد العائلة .

وفى أوائل فصل الربيع سافر الي مقره الجديد وحط الرحال فى قرية كبيرة من قرى تلك الاراضى وكان حظه منها هو وأولاده خمسة انصبة بلغ مجموعها ١٢٥ فدانا فى جهات متفرقة من القرية التى استوطنها أى أضعاف ماكان يملكه فى قريتــه الاولى فاصبح لديه حقل واسع ومرعى فسيح ترتع فيه كثير من الماشية . ثم مضت أيام اشتغل أثناءها باهوم بتخطيط المزرعة وبناء العزبة وشراء الدواب اللازمة للعمل ولذا كان فى مبدأ هجرته قانعا بحياته الجديدة فرحا بما رزقه الله الا انه ماكاد يتم ماشرع فيه حتى تسلط عليه الطمع ثانيا فصار ينظر الى أرضه الجديدة بعين الاستصغار .

زرع فى عامه الاول قمحا فكان المحصول جيدا فطمع فى الزيادة غير أن الارض لم تسعفه بطلبته لانهــا كانت تتفاوت فى الخصوبة فلا تصلح جميعها لزراعة القمح فعول على ايجــار أراض أخرى تصلح لذلك ففعل الا ان ذلك لم يرق فى عينه أيضا فكان يشكو من بعــد الارض وصعوبة النقل ففكر فى نفسه قائلا :

لو كنت اشترى قطعة مستقلة خارجــة عن نطاق المشروع فأبني عليها ضيعة صغيرة لكان لى من وراء ذلك فوائد جمة » وكانت

هذه الفكرة ماثلة بذهنه يفكر بها من حين لآخر . ثم سار على هذه الوتيرة وهو يستأجر أرضا ويزرعها قمحا مدة ثلاثة أعوام وكان الدهر مواتيا له فربح أرباحا وفيرة لجودة المحصول الا أن ذلك كله ما كان ليقلل من طمعه بل كان يزداد تذمرا كلما فكر في المال الذى يصرفه للمؤاجر واتفق أن أجر فى العام الثالث قطعة من الارض من بعض القرويين هو وأحد التجار ثم وقع بينهما وبين أصحاب الارض منازعات أدت الى التقاضي واسفرت عن خسارتهما فتذمر باهوم وقال فى نفسه « كل ذلك ما كان ليقع لو أن الارض كانت لى خاصة »

ومن ذلك الحين أخذ يبحث عن قطعة أرض للشراء فأوقعته المقادير فى قطعة صالحة أراد صاحبها أن يبيعها عاجلا تخلصا من عسر أحاق به وكانت الارض تبلغ مساحتها ١٣٠٠ فدانا فصلها باهوم بمبلغ ١٥٠٠ روبل يدفع نصف ثمنها فورا ويكتب على نفسه وثيقة بالباقى . وقبل أن يتم البيع بأيام مر عليه بعض التجار وطلب منه علفا لفرسه فاحتفى باهوم به ودعاه الى تناول الشاى معا وجلسا يتحدثان فسأله باهوم من أين هو آت فاخبره أنه آت من أرض بعيدة تابعة لقبائل البشكير حيث اشتري لنفسه هناك ثلاثة عشر ألف فدانا من الارض بمبلغ لا يزيد عن ألف روبل فدهش باهوم

واستزاده الخبر فقال « وما على المرء الا أن يتودد الى الرؤساء بهدايا فيمنحونه كل مايطلب . وقد اشتريت لهم ملبوسا وسجادة وعلبة من الشاى وبعض النبيذ وهدايا أخرى كلفنى مجموعها نحو مائة روبل وبهذه الوسيلة أكرمنى الرئيس بأن تنازل عن ثمانية كوبكات فى ثمن الفدان الواحد » قال ذلك وأخرج صك المبايعة يريه لباهوم وهو يقول : « ان موقع الارض قريب من النهر ومما يزيدها أهمية انها بكر لم تستغل بعد فافتتن باهوم بأقوال الرجل ولم يتمالك عن استزادته الحديث والالحاف عليه بالسؤال فأجابه الرجل « إن هؤلاء القوم يملكون من الارض مالا يقع تحت حصر ولا عدوهم على جانب عظيم من السذاجة وبلادة الطبع ليس للارض عندهم أدنى قيمة » فأطبق خاتم الحرص على قلب باهوم وناجى نفسه قائلا « أنا الآن أملك ألف روبل فأى شىء يجبرنى على شراء قطعة من الارض مساحتها ١٣٠٠ فدانا بينما يمكننى شراء عشرة أضعاف هذا المقدار بنفس المبلغ دون أن أثقل كاهلى بالدين »

* * *

لم يتردد باهوم فى الامر لحظة واحدة بلما كاد الرجل يفارق الضيعة حتى كان هو وخادمه على الطريق الموصلة الى قبائل البشكير ليتحقق الامر بنفسه وبعد مسيرة بضع ساعات حط رحاله فى

احدى القرى ليشترى صندوقا من الشاى وبعض النبيذ وهدايا أخرى كما أوصاه الرجل ، ثم واصل سيره حتى انتهى الى مكان القبيلة بعد أن قطع مسافة لا تقل عن ثلثمائة ميل فوجد الامر كما وصفه الرجل ورأى أن القوم يسكنون الخيام بالقرب من مراع فسيحة يخترقها نهر عظيم وجل معيشتهم على اللحوم ومستخرجات الالبان ولا يمنون بزراعة الارض وغرسها ، والنساء هن اللواتى يقمن بكل الاعمال . أما الرجال فلاهم لهم الا الأكل وشرب الشاى والضرب على القيثارة وكلهم أقوياء البنية صحاح الاجسام يقضون فصل الصيف باللهو واللعب ولا يباشرون فيه أى عمل من الاعمال وهم على درجة عظيمة من السذاجة وبلادة الطبع ولا يعلمون من الروسية حرفا واحداً وانما يتكلمون بلغة خاصة بهم ، ومن عاداتهم الجميلة ، اكرام وفادة الغريب ، اذ ما كاد يقع نظرهم على باهوم حتى خرجوا من خيامهم والتفوا حوله صغاراً وكباراً يتأملون وجهه وكان بينهم رجل يتكلم بالروسية فتوسط بينه وبين قومه وسأله عن قصده فأخبره باهوم إنه جاء ليصيب عندهم بعض الارض ففرحوا بذلك وأخذوا بيده الى أحدى الخيام الكبيرة حيث أجلسوه على وسادة وثيرة وقدموا اله أعز ما لديهم من المأكل والمشرب وبعد الانتهاء من الطعام قام باهوم إلى عربته وأخرج ما كان لديه من

الهدايا ووزعها عليهم بالتساوى فارتسمت على وجوههم أمارات البشر والسرور ، واخذوا يتكلمون فيما بينهم مدة طويلة وأخيراً أشركوا الترجمان فى الحديث فالتفت هذا الى باهوم وقال له : « قد سر القوم من هديتك أيما سرورهم ويشكرونك كثيراً على هذا الصنيع ومن عادتهم اكرام الضيف بكل ما في وسعهم فاطلب ماتريده منهم لقاء هديتك فانهم لا يتأخرون لحظة واحدة عن اسعافك بمرغوبك » فأجابه باهوم : « جل رغبتى هو أن أصيب عندكم قطعة من الارض لزرعها واستثمارها لان الارض عندكم خصبة للغاية » فأخبرهم الترجمان بما يقول فعادوا الى حديثهم ثانيا وكان باهوم يجهل لغة القوم وانما رآهم يبتسمون ويضحكون ثم التفت اليه الترجمان قائلا : يقولون انهم سوف يعطونك بكل سرور قدر ما تطلب من الارض فما عليك الا أن تشير بيدك الى قطعة الارض التى تريدها لنفسك فتكون لك » وما كاد الرجل يتم حديثه حتى قامت ضجة بين القوم فسأله باهوم عن جلية الامر فأخبره الوسيط أن القوم قد انقسموا الى فريقين فريق منهم يريد ألا يبت فى الامر حتى يحضر الرئيس وآخرون يخالفونهم فى الرأى

* * *

وبينما هم فى جلبتهم وضوضائهم اذ برجل ضخم الجثة عريض

الا كتاف يلبس قبعة كبيرة من فرو الذئاب قد دخل من باب الخيمة فوجم القوم وسكتوا كأنما على رؤسهم الطير وقد قاموا اجلالا لشأن القادم واكبارا لأمره فاخبره الترجمان أن القادم هو رئيس القوم فقام باهوم مسرعا وأحضر له نصيبه من الهدية وهى خمسة أرطال من الشاى وبعض الثياب النفيسة فتقبلها الرئيس شاكرا وجلس فى صدر المكان والتف القوم حوله يحدثونه بشأن باهوم فاشار اليهم بالسكوت ثم التفت اليه يخاطبه بالروسية : « اخبرنى القوم بشأنك وما كنت لأرد لك طلبا فاختر القطعة التي ترضاها لنفسك فان لدينا كثيرا من الارض كما ترى » فقال باهوم فى نفسه « كيف أقبل منه ذلك بمجرد القول بلا قيد ولا شرط. الا يجوز أنهم يندمون فى المستقبل فيرجعون ما وهبوه لي من الارض ! ! » ثم خاطب الرئيس قائلا : « اقدم لكم جزيل الشكر علي هذا الاكرام ولكن ألا يجدر بنا أن نستوثق الامر بحجة أو سند فان الاعمار بيد الله والمرء لا يأمل ان يخلد طول الدهر الا يجوز أن يأتى بعدكم خلف لا يرضى بعملكم فينازعنا فى الارض » فاجابه الرئيس : « إنك محق فيما تقول وسوف يكون الامر كما تريد » فقال باهوم « بلغنى ان أحد التجار اشتري منكم من عهد قريب قطعة من الارض وأخذ عليكم عقداً بالبيع وأنا أحب أن

تعاملوني بمثل معاملته »

فاجابه الرئيس حبا وكرامة عند ما يتم الاتفاق نكتب عقدا بذلك ثم نسجله فى محكمة البلدة

فسأله باهوم . « وكم يكون الثمن » : فأجابه الرئيس بقوله : ان الثمن عندنا محدد لا يتغير فاننا نأخذ الف روبل عن اليوم (الكامل) فلم يفهم باهوم ماذا أراد بقوله اليوم الكامل فسأله مستفهما . « ماذا تعنى باليوم الكامل وكم فدانا يكون » فأجاب الرئيس : « نحن لا نستعمل المقاييس فى مسح الارض وانما نقدرها بالسير فيها يوما كاملا وثمن الارض التى يقطعها المرء مشيا على أقدامه يوما كاملا هو الف روبل » ففرح باهوم وصاح قائلا : ولكننى اقطع فى اليوم أرضا كبيرة للغاية » فأجاب الرئيس « كل ما تسير على قدر جهدك يكون ملكا لك على شرط الرجوع قبل غروب الشمس فاذا غربت الشمس ولم ترجع تخسر جميع ما تدفعه من المال » فقال باهوم . « ولكن كيف السبيل الى معرفة الارض التى اقطعها ؟ » فأجابه قائلا :

ـ ان ذلك سهل ميسور عليك أن تختار لنفسك بقعة من الارض تسير منها . وعند كل ثنية من الارض تحفر حفرة صغيرة تجعل بجانبها كومة من التراب بفأس صغير يكون معك لهذا الغرض

وعند الانتهاء نصل نحن تلك العلامات بحراثة دائر الارض التي تقطعها في اليوم ولك مطلق الحرية في أن تسير في الأرض كما تريد على شرط الرجوع قبل غروب الشمس

فارتاح لذلك باهوم وتقرر أن يبدأ في السير صباح ذلك اليوم ثم أكملوا يومهم في الحديث والمنادمة حتى اذا اقبل الليل فرشوا له فراشا وثيرا وتركوه في الخيمة لينام فيها ليلته بعد أن وعده الرئيس بأن يوافيه صباحا قبل بزوغ الشمس

***

رقد باهوم طول ليلته وهي يبني لنفسه التصور والعلالي متقلبا على فراش الأماني والأحلام دون أن يغمض له جفن أو يكتحل بنوم وقبيل الفجر أخذ التعب منه مأخذه وقد تغلب عليه النعاس وأخذته سنة من النوم ثم رأى فيما يراه النائم أن الرئيس اقبل عليه ينتظره على باب الخيمة فخرج اليه يسأله عن جلية الأمر فوجد أن القادم ليس الرئيس وانما هو الرجل التاجر الذي أرشده الى أراضي البشكير فتقدم منه وقد هم أن يسأله متى حضر واذا به يري في وجهه صورة الرجل القروى الذى أقبل اليه في قريته الأولى من جهة الفولجا فهم أن يصافحه ويترحب به واذا به يرى في وجهه صورة ابليس اللعين في شكل بشع ومنظر مريع فأشاح

بوجهه الى جهة أخري فرأى جثـة انسان ملقاة على مقربة منه فاقترب من الجثة ليتأمل وجه صاحبها ولكنه ما كاد يقترب منها بعض خطوات حتى ارتد مذعوراً لأنه رأى فيها صورة نفسه . ثم قام من نومه وهو على هذه الحالة ممتقع اللون ترتعد فرائصه فرقا ونظر الى باب الخيمة فلم ير غير حمرة الشفق فعلم أن ستر الليل أوشك أن يتمزق فلا يمضى القليل حتى يسفر الصباح عن وجهه فهب من فراشه وهو يقول : ما أكثر ما يرى الانسان فى نومه لاشك انمارأيته هو اضغاث أحلام . وها قد قرب الصبح والقوم نيام بعد » ثم ذهب مسرعا نحو خادمه الذى كان نائما فى العربة فأيقظه وأمره بالاستعداد ثم أسرع نحو القوم يوقظهم فصحا القوم واجتمعوا فى خيمته ولم يلبث ان وافاهم الرئيس وكانت الشمس قد قاربت البزوغ فأمر باحضار طعام الافطار وعرض على باهوم تناول بعض الشاى فأبى قائلا : « لم يبق متسع من الوقت فلنبدأ بالعمل ان كنا فاعلين »

* * *

وعندذلك وقف القوم استعدادا للمسير ثم ركب بعضهم العربات وامتطى اخرون متون الجياد وركب باهوم عربته وسار فى طليعة القوم مع الرئيس وبعد أن ساروا قليلا وصلوا الى تل صغير يشرف

على سهل فسيح الارجاء وكانت الشمس قد بدأت فى البزوغ فوقف القوم وتقدم الرئيس قائلا وقد أشار بيده الى السهل : « انظر كل هذا السهل الفسيح ملك لنا ولك أن أن تسير فيه أنى تشاء » وبعد أن قال ذلك خلع قبعته ووضعها على الارض قائلا . « فلتكن هذه القبعة علامة لمبدأ سيرك فابتديء فى السير من هنا ثم ارجع اليها ثانية بعد أن تتم دورتك وكل الارض التى تمشى فيها تكون ملكا لك »

ولم يتمالك باهوم من اظهار الفرح والسرور عند ما رأى ذلك السهل الفسيح وتيقن انه خصب يصلح لزراعة كل أنواع الحبوب ثم أسرع من وقته فوضع مالديه من النقود وهو الالف روبل فى قبعة الرئيس ثم طرح رداءه الخارجى وشمر عن أكمام قيصه ليكون خفيف الحمل في ال . . . تمنطق بسير من الجلد شده على وسطه وحمل على ظهره حقيبة صغيرة فيها بعض الزاد وما يلزم لشربه ذلك اليوم ثم أمسك بالفأس والتفت يمنة ويسرة ليختار له وجهة للسير وبعد أن وقف برهة ناجى نفسه قائلا . كل الارض سواء ولكن يحسن بى أن أسير نحو الشرق » قال ذلك وحمل فأسه على ظهره وسار يتبع مشرق الشمس

* * *

وبعد أن قطع نحو ألف ياردة وقف قليلا لحفر الارض ثم جعل بجانبها كومة من التراب علامة لوصوله تلك البقعة وكان يمشي مشيته الاعتيادية لا يمهل ولا يعدو فقطع بذلك ألف ياردة أخرى وجعل علامة أخرى ، ثم مشى قليلا ونظر الى التل حيث كان القوم فلم يتبينهم جيدا لانه كان قد ابتعد عنهم كثيرا بمسافة لا تقل عن الثلاثة أميال كما قدرها باهوم فى نفسه وكان الوقت ضحى فابتدأ يشعر بحرارة الشمس فقال فى نفسه « قد قطعت ربع ما يجب أن أقطعه في اليوم وعلى أن أتم المربع فى باقى اليوم ولكن لا يزال أمامى متسع من الوقت » قال ذلك وخلع نعليه وربطهما فى وسطه ليرتاح فى المشى ثم سار فى وجهته الاولى وكان كلما سار وجد الارض أخصب والتربة أجود . فقال فى نفسه . « انه من الحمق ترك هذه البقعة الخصبة ماعلى لو سرت ثلاثة أميال أخرى » فسار فيها وقد جدد الحرص فى نفسه همته الاولى حتى أخذ التعب منه مأخذه فنظر واذا بالشمس فى كبد السماء فعلم أن النهار قد انتصف فوقف ريثما جعل علامة لوصوله تلك البقعة ثم جلس للغداء فأكل بعض الزاد وشرب قليلا من الماء وانتصب واقفا وهو يقول . « يجب أن أسير لأن الراحة تجلب النعاس واذا نمت قليلا لا آمن من الخسارة » فسار من وقته وقد أراد أن يعطف الي وجهة أخرى اتماما للمربع

غير أنه أبصر على مقربة منه أرضا منخفضة فقال فى نفسه . « هذه الارض تصلح لزراعة الكتان وما كنت لأترك هذه الفرصة » قال ذلك ومشى حولها حتى اذا ما أتم مسيره وقف عند نهايتها وجعل علامة لوصوله تلك البقعة أيضا . ثم نظر الى التل فرأى أن حجمه قد صغر جدا فعلم أنه قطع كثيرا وانه ان لم يسرع فى الرجوع خسر كل آماله . فأسرع لوقته وهو يقول . « ان الارض التي قطعتها لا نسبة بين طولها وعرضها اذ أن الطول سوف يربو كثيراً على العرض ولكن رغم ذلك فقد أصبحت أملك قطعة فسيحة من الارض » ثم وقف برهة يحفر الارض بسرعة زائدة لتكون علامة وصوله تلك الجهة وبعد أن أتم عمله انعطف نحو التل يريد الرجوع مسرعا الا أن كثرة المشى وشدة الحر انهكتا قواه فصار يمشي بصعوبة ويتهادى فى مشيته كالشيخ الضعيف بعد أن كان يهرول أما قدماه فقد تشققتا وسالت الدماء منهما لكثرة ما اصطدم أثناء مشيه بالحجارة والحصى وهو لا يعى وتخاذل ساقاه وضعفتا عن حمله اذ كان فى حاجة شديدة الى بعض الراحة ولكن انى له ذلك والشمس آخذة فى الغروب شيئا فشيئا وكان ما عليه من الحمل يضايقه كثيرا فرمى حقيبته أولا ثم نعليه وخلع بعد ذلك صدرته وهكذا صار يرمى ما عليه من الملابس حتى لم يبق عليه سوى

القميص والسروال وأمسك بيده الفأس ليتوكأ عليه وسار يعدو بكل قواه واستمر مدة على هذه الوتيرة ثم نظر الى الشمس فعلم أنها لا تلبث أن تغرب ففزع لذلك كل الفزع وقال فى نفسه. « رباه ماذا العمل يخيل لى أن الطمع سيفسد على كل أمالى » غير أنه ما لبث أن تشجع قائلا « عار على أن أرجع عن عزمى فاتقاعد عن السير بعد أن قطعت هذه المشقة الطويلة » فجمع نفسه وسار يمشى بكل قوته حتى قارب التل فسمع صياح القوم من بعد فتشجع ثانيه وأخذ يعدو بكل ما فيه من قوة وعزم وكانت الشمس قد قاربت الغروب فلا تمضى بضع دقائق حتى تختفى عن الانظار الي ماوراء الشفق الاحمر ، الا ان باهوم كان في ذلك الوقت على مسيرة بضع خطوات من سفح التل يسمع صياح القوم ويميز أصواتهم ويرى قبعة الرئيس عند ذلك تذكر ما رآه فى الحلم فقال فى نفسه : «حقا ان الارض التى قطعتها فسيحة الارجاء بعيدة المدى ولكن هل كتب لى فى لوح المقدور أن أعيش عليها » ثم عاد فتذكر أنه على قيد خطوات من مبدأ مسيره وانه ما عليه الا أن يجمع عزيمته ثانية فيصل اليها ويملك الارض . فجددت هذه الامانى فى نفسه ميت الأمل فسار طورا يتهادى كالشيخ الضعيف وتارة يحبو كالطفل الرضيع حتى وصل سفح التل عند ذلك نظر واذا بالشمس

قد غربت وأصبح السهل فى ظلام حالك فتقطعت نياط قلبه وصاح يقول : «أواه قد ذهبت أتعابى أدراج الرياح » الا أن القوم لم ينقطعوا عن صياحهم وندائهم فتذكر أن مكانهم أعلى من مكانه لانه مازال فى سفح التل وأن الشمس لا تزال ظاهرة لديهم فتنفس الصعداء وجمع كل ما لديه من قوة وعزم وأخذ يصعد التل فوصل القمة وكانت الشمس لا تزال ظاهرة لديهم ثم عاد فتذكر ما رآه فى الحلم فصرخ صرخة مزعجة وارتمى على الارض بالقرب من قبعة الرئيس : وقد وضع يده عليها ، فقال الرئيس «انه سعيد الحظ فقد أصاب قطعة كبيرة من الارض» ثم أسرع خادم باهوم ليرفعه عن الارض ولكنه ما كاد يرفعه قليلا حتى سال الدم من فمه وارتمى على الارض جثة هامدة . فوجم القوم وأطرقوا برؤسهم الى الارض وقد ارتسمت على وجوههم الكآبة والحزن

وقام خادم باهوم فحفر لسيده قبراً يبلغ طوله ست أقدام وكان ذلك كل نصيبه من الارض

— ٤ —

ابن العراب

بسم الدهر ذات صباح لقروى فقير فرزق طفلا فرح به فرحا شديداً وعلق عليه آمالا كبيرة وأسرع لوقته نحو جاره العزيز مستبشرا فأخبره بالأمر وطلب منه أن يكون عرابا للطفل. ولكن جاره العزيز أنف من ذلك ورده خائبا فانصرف المسكين يتعثر بأذيال الخيبة والفشل وقصد جاره الثانى فالثالث ثم الرابع وهكذا حتى طرق أبواب القرية على غير جدوى لا لذنب أتاه أو لجرم اقترفه سوى أنه فقير معدم

أظلمت الدنيا فى وجهه أثر هذه الصدمة الشديدة فسخط على الدهر وتبرم من جده العاثر ثم خرج من قريته موليا وجهه شطر القرية المجاورة بغية أن يجد فيها من لا يأنف من أن يكون عرابا لمولود فقير فسار المسكين (فى طريقه) تتناوبه الاحزان وتتقاسمه الهموم والاشجان لا يلوى فى طريقه على شىء

وما كاد يبلغ نصف الطريق حتى استوقفه رجل طارحه السلام وسأله عن وجهة مسيره . فأخبره بما وقع له ذلك اليوم ثم ختم حديثه قائلا : وانى الآن ذاهب الى القرية المجاورة عسانى أجد

رجلا لا يأنف من أن يكون عرابا لطفلى فابتسم الرجل المجهول وقال أنا أكفيك مؤونة البحث والتعب دعني أكون عرابا لولدك .

ما سمع القروى المسكين هذه الكلمات التى نزلت على قلبه بردا وسلاما حتى تهلل وجهه بالبشر وتمتم بعض كلمات يشكر بها معروف الرجل ولكن عاد فعبس ثانية كمن تذكر أمرا فاته فقال وصوته يتهدج حزنا

ـ آه يامولاى لم تنفرج الازمة بعد . قل لى بربك . أين أجد امرأة طيبة القلب نظيرك تقبل أن تكون عرابته

ـ لاتحزن ياصاح فأنا أرشدك الى امرأة صالحة تقبل ذلك عن طيب خاطر . اذهب الى المدينة وهناك فى الساحة العمومية تجد منزلا مبنيا بالآجر فى مدخله حانوت فاسأل عن صاحب هذا الحانوت وعند ماتقابله أخبره بالامر واطلب منه أن تكون ابنته عرابة لولدك فانه لايردك خائبا

فهز القروى كتفيه بيأس كمن يرتاب فى أمر لا يرجوه ثم خاطب الرجل قائلا :

ـ أمثلى يطلب من تاجر غنى أن تكون ابنته عرابة لابنى لا ريب فى أنه سوف يهزأ بشأني ويزدريني اذا تجاسرت على مثل هذا الطلب

فأجابه الرجل بملء السكينة

ـ لاتدع اليأس يتطرق الى فؤادك بل كن واثقا بانه سيجيب طلبك فاسرع يا عزيزى قبل فوات الوقت وغدا صباحا تجدنى حاضرا فى حفلة التنصير

فقفل القروى راجعا الى قريته وامتطى فرسه وقصد المدينة يبحث عن حانوت التاجر وعند ما اهتدى اليه وترجل عن فرسه قابله التاجر بوجه باش وسأله عن حاجته فاجابه والخجل يكاد يعقد لسانه

اعلم ياسيدى أنه ولد لى فى هذا الصباح طفل وقد جئت أرجوك أن تتفضل بأن تكون ابنتك عرابته . فسأله التاجر

ـ ومتى تكون حفلة التنصير ؟

ـ غدا صباحا

ـ حسن سوف تكون ابنتى عندك غدا فاذهب مطمئن البال .

وفى اليوم الثانى حضر الرجل المجهول وحضرت ابنة التاجر وبعد أن أتم الكاهن تنصير الغلام انصرف الرجل المجهول ولم يعلم عنه شيئا بعد ذلك اليوم

***

مضت أيام وشهور كبر أثناءها الطفل وترعرع فأدخله والداه مدرسة القرية فتعلم فيها كل ما يمكن أن يتعلم وخرج منها

شابا متين العضل قوى البنيـة تلوح على وجهـه أمارات الجـد والاقدام

جاء عيد الفصح فاشرقت منازل القرية وأكواخها بالانوار وخرج القرويون زرافات ووحـدانا وعلى وجوههم سيماء البشر وأمارات الـسرور. أما طفل الأمس وفتى اليوم فـكان يـسير وحيدا منفردا مبتعدا عن الضجيج يفكر فى عرابه المحبوب ذلك الرجل الطيب القلب الذى رضى بكل ارتياح أن يكون عرابا له فى الوقت الذى أنف أهل قريته من هذا الامر . ثم ناجى نفسه قائلا:

ـ آه لو استطعت مقابلة ذلك الرجـل الطيب إذن لـكنت أوقف كل حياتى على خدمته واحترامه

ما كاد يصل من حديث نفسـه الى هـذا الحـد حتى التفت الى يمينـه واذا به يرى شـيخا يدب على عصاه تلوح عليه الهيبة والوقار وكان يدنو منه باسما وهو يقول .

ـ تقدم يابنى ولا توجل أما كنت منذ هنيهة تحدث نفسك مستفهما عن مقر ذلك الرجل الذى رضى أن يكون عرابا لك فى طفولتك فهاهى المقادير جمعتك به لتقدم له تحية عيد الفصح

وعند ذلك ارتبـك الشاب لهذه المباغته ولكنه سـرعان ما تمالك نفسـه وتقدم الى الرجل باسما وشكره على معروفه السابق وقدم

له تحية العيد بأن قبله ثلاثا كما هي العادة ثم خاطبه قائلا .

ـ كم أكون مسروراً ياسيدى اذا شرفتني بمعرفة اسمك ومكان اقامتك لاقوم نحوك بما يجب للابن نحو عرابه

ـ لا سبيل الى معرفة اسمى اذ لا يهمك ذلك وأما اذا رغبت فى أن تعلم مكان اقامتى فما عليك الا أن تذهب غدا الى هذه الغابة المجاورة وتمشي فيها حتى ينتهى بك المسير الى ساحة صغيرة محاطة بالأشجار الباسقة فتقف فى ذلك المكان قليلا تتأمل ما حولك فترى طريقا ينتهى بك الى قصر شاهق تحيط به حديقة غناء هـذا هو منزلي . فى فناء هذا القصر تجدني فى انتظارك

وما وصل الرجل من حديثه الى هذا الحد حتى رفع الشاب رأسه ليتأمل وجه عرابه جيدا واذا به لا يرى أمامه سوى الحقول الخضراء وعلى بعد منه يسمع ضجيج أهل القرية فى سرورهم وابتهاجهم بالعيد . فقفل راجعا كمن هو فى حلم لا يصدق مارآه وأزمع المسير الى الغابة صباح ذلك اليوم ليتأكد صحة ما سمعه ورآه

***

وما كادت الشمس تشرق حتى كان الشاب فى طريقه الى الغابة يعدو فى مشيته ونفسه تنزع الى معرفة سر الرجل حتى اذا انتهى به المسير الى الساحة التى وصفها له عرابه وقف يتأمل برهة فرأى

طريقا غاية فى الابداع تحف به الاشجار على الجانبين وينتهى بقصر شاهق محاط ببستان جميل يتلألأ فى تلك البقعة النضرة تلألؤ الكوكب المنير

عند فناء هذا القصر البديع قابله عرابه بوجه باسم ومشى به الى الحديقة أولا ثم القصر ثانيا متنقلا به من جهة لأخرى يريه مقاصير القصر ويطلعه على محتوياته وكان كلما مشى خطوة زاد تعجبه من محتويات القصر وفرشه الثمين الى أن انتهى بهما المسير الى غرفة مقفلة فوقف العراب أمامها وأشار اليها قائلا : « قد انتهينا الآن من طوافنا وقد أطلعتك على كل ما فى القصر ولك أن تمرح فيه كيف تشاء وانى شئت ولكن حذار أن تدخل هذه الحجرة »

وما كاد العراب يفرغ من كلامه هذا حتى اختفى عن الانظار ولم يظهر له أثر بعد ذلك . فقضى الشاب ردحا من الزمن وقد طابت له السكنى فى القصر فعاش هنيء البال قرير العين مدة تقرب من الثلاثين عاما مرت عليه كحول واحد لاغتباطه وسروره

مرت عليه تلك المدة الطويلة وهو فى مقام كريم وعيشة راضية ثم تسرب اليه الملل شيئا فشيئا فصار يطوف القصر طول يومه يبحث عن شىء جديد يسلى به النفس واذا به واقف ذات يوم أمام الغرفة المقفلة ثم تذكر وصية عرابه فتنازعه عاملان

عامل الفضول وعامل احترام الوصية . وأخيرا تغلب عليه الفضول ففتح الباب ثم ولج الغرفة وتقدم فيها بضع خطوات فرأى نفسه فى بهو فسيح يتوسطه عرش كبير يصعد اليه المرء ببضع سلمات فتقدم نحوه ورقيه ثم جلس يتأمل ما حوله فوقع بصره على صولجان بديع الصنع بالقرب منه فمد اليه يده ليمسكه وما كاد الصولجان يستقر بين أصابعه حتى سمع ضجة وجلبة واذا بأركان الغرفة تهتز ثم ارتفع جدران البهو فنظر واذا به يرى العالم أجمع منبسطاً أمامه وهو ينظر اليه من علء نظر امامه فرأى البحار والمحيطات تمخر فيها المراكب وتشق عبابها السفن ثم التفت يمنة فأبصر عوالم غريبة وأجناسا مختلفة من البشر يخالفونه فى الشكل واللباس ثم ادار وجهه الى جهة أخرى فرأى اناسا يقاربونه فى شكلهم ولباسهم يتكلمون بلغة يفهمها فعلم أنهم روسيون مثله فتهلل وجهه وحدثته نفسه أن يبحث غن أهله وقريته بين مئات من القرى وما كاد يهتدى اليها حتى خطر بباله أن يتفقد حقل والده فصوب نظره نحو الحقل فرأى أكداس الحصيد منتشرة فى طول الحقل وعرضه على أهبة النقل ثم أبصر رجلا يتسلل الى الحقل بعربته فظن أن والده جاء ليلا ليحمل الغلال الى مخازنه ولكنه لم يكن يتبينه حتى علم أنه (واسيلى كوندارتشوف) جاء متسترا بأثواب الليل ليسرق بعض

القمح . وعند ذلك انتفض الشاب غضبا وصاح بأعلى صوته ثم يا أبت فان اللص يسرق القمح من مزرعتك .وكان الوالد اذ ذاك نائما على بعد من المزرعة فقام من فوره ينفض عن نفسه غبار النوم ويناجى نفسه قائلا : « قد نبهني صوت هاتف يقول ان لصا يسرق الحنطة من الحقل فسوف أذهب الى هناك لاتحقق الأمر بنفسي» قال ذلك وامتطى فرسه ثم أسرع للحقل وهناك رأى اللص (واسيلى) فأمسك بخناقه وساقه الى السجن

عند ذلك اطمأن بال الابن وصوب نظره الى مدينة القرية ليتفقد حال عرابته ابنة التاجر فعلم أنها تزوجت من رجل تاجر ثم نظر فرآها نائمة ورأى زوجها قد قام الى الباب متسللا ثم خرج يمشى فى طرقات المدينة ليلا فاتبعه النظر فرآه قد دخل عند امرأة أخري علم أنها خليلته ذهب اليها فى تلك الساعة ليخون امرأته فاستفزه الغضب لهذا الامر وصاح بعرابته ينبهها قائلا :

« ألا انتبهي أيتها الغافلة فان زوجك يسلك طريق الغواية» فقامت المرأة من نومها فزعة وتلمست مكان زوجها فلم تجده فتحققت صدق قول الهاتف فلبست ثيابها مسرعة وذهبت تبحث عنه الى أن اهتدت اليه وهو بين أحضان خليلته فشب بينه وبينها عراك عنيف ورجعت الى بيتها مغضبة بعد أن أوسعت زوجها شتما وتوبيخا.

وعند ذلك اطمأن الشاب وخطر ببـاله أن يتفقـد حال أمه فصوب نظره نحو البيت فأبصر لصا يحاول كسر الصندوق الذي اعتادت أمه أن تضع فيه أمتعتها ووجد أمه نائمة بالغرفه المجاورة فرآها قد استيقظت على أثر صوت الـكسر ورأى أن اللص قـد أمسك بيمينه فأسا يريد أن يهوى به على رأس أمه ليقتلها. فـلم يتمالك الولد أن هوى بالصولجان على رأس اللص فوقع لساعتـه قتيلا عند ذلك اهتز اركان العرش وسمع صوت الجدران تنزل ثانية ثم نظر واذا بالغرفة قد عادت كما كانت وبعد برهة فتح البـاب ودخل عرابه متقدما نحو العرش فأخذه بيده وأنزله منـه وهو يقول :

«هاأنذا أراك قد خالفت أمري وارتكبت معصية الدخول الى الغرفة مع تحذيري اياك ثم اتبعتها بخطيئة أخرى عندما علوت العرش وتداخلت فيما لا يعنيك وأخيرا ختمت هاتين المعصيتين بجرم أفظع اذ قتلت نفسا بشرية ولو تسنى لك أن تمكث هنا نصف ساعة أخرى لـكنت تتلف نصف العالم»

قال الرجل هذا القول وأمسك بيد الشاب وقاده ثانية وانكشف العالم أمامهما مرة أخرى ثم أشار العراب بيده قائلا : « انظر ماذا قدمت لوالدك من اساءة كنت تظنها مكرمة .هاهو واسيلي اللص

قد أمضى سحابة عامه بين جدران السجن مهد الشر والموبقات فازداد غلظا وشراسة وكانت فاتحة شروره بعد خروجه من السجن أن سرق فرسين لوالدك وها هو الآن يضرم النار فى أجران القمح انتقاما لنفسه من أبيك . كل هذه المصائب أنت السبب فى جلبها الايك » فنظر الشاب أمامه فرأى أكوام القمح تحترق فهلع قلبه اضطرابا ولم يتمكن من ادامة النظر لأن العراب التفت الى جهة أخرى وأشار قائلا : « انظر ها هو زوج العرابة مضى عليه عام بعد هجر زوجته ولم يقطع بعد عن شروره وآثامه أما خليلته فقد زادت انغماسا فى شهواتها وها هى عرابتك تندب سوء حظها وتقضي ليلها تعالج همومها بالمسكرات بغية أن تجد الصبر والسلوان فهل رأيت صنعك لعرابتك والآن انظر لترى ما قدمته يداك لامك المسكينة » فنظر واذا به يرى والدته فى كسر دارها قد أثقلت ظهرها الهموم وهى تقاسي الامرين من تبكيت الضمير وتندب حظها قائلة « ويح نفسى ما أشقاها لقد كان الاولى بى أن يقضى على اللص فى تلك الليلة المشؤمة من أن يحملني تلك الخطيئة » .

ثم أشار اليه عرابه أن أنظر فنظر واذا به يرى دار السجن وأمامها ثلة من الجنود فقال له : « أترى هذا الرجل أنه سفك دماء عشرة من الابرياء وكان لا محيص له من أن يكفر عن سيئاته بنفسه ولكنك

عجلت عليه بالقتل فحملك جريرة دمه ودم الذين جار عليهم القتل فهل رأيت الآن نتيجة عملك وماجلبته لنفسك بطيشك ونزقك. أمامك الآن ثلاثون عاما تقضيها فى هذا العالم تضرب بقدمك فى فسيح ارجائه وتعمل جهدك على تكفير ذنبك واذا لم تتمكن من تكفير ذنوبك قبل انقضاء هذه المدة تنال من الجزاء ما كان سيناله هذا اللص » فسأله الشاب وقد أكمد لونه وارتسمت على وجهه علامات الخوف والجزع .

— بربك قل لى كيف أكفر ذنوبى

فأجابه . ذلك ميسور لك اذا تلافيت من شرور هذا العالم بالقدر الذى جلبته اليه وبذلك تكفر عن خطيئتك وخطايا اللص معا

— وكيف السبيل الى محو الشر من العالم

— أنا مرشدك الي ذلك . قم الآن وسر فى الارض نحو المشرق وبعد مسير بضعة أيام تصل الى مزرعة فيها بعض رجال فراقب ما يعملون ثم أخلص لهم النصح بما تعلمته فى سفرك وأتم مسيرك نحو المشرق أيضا الى أن ينتهي بك المسير الى غابة كذا وفيها تجد كهفا يسكنه شيخ معتكف فقص على هذا الشيخ كل ما تراه وتتطله فى طريقك اليه فهو مرشدك الى ما يكون فيه

تكفير ذنبك ان شاءالله

وبعد أن ودع الشاب عرابه سار يتبع مشرق الشمس كما أمره وهو يناجى نفسه بهذه الاقوال : « كيف يتسنى لى محو الشر من هذا العالم ؟ وكيف يستطيع المرء ذلك دون أن يتحمل خطايا البشر وهل لأدواء الانسانية وشرورها علاج غير ذلك ؟ أخذ يفكر فى ذلك طول طريقه عله يجد حلا لهذه المشكلة ولكن على غير جدوى . وكان قد وصل الى مزرعة كبيرة ورأى القمح فيها ناميا وقد طالت سوقه ولم يبق على حصده الا القليل ثم لمح على بعد منه عجلا صغيرا يعدو فى الحقل وقد طار وراءه بعض الرجال يطاردونه بغية اخراجه من الحقل قبل اتلاف سوق القمح ثم رأى فى الطرف الآخر من المزرعة امرأة تعول وتصيح قائلة :

— ياللداهية إنهم سوف يقتنعون العجل فلا يلبث أن يقع صريعا بين أرجل جيادهم . عند ذلك ناداهم ابن العراب بقوله : « ما هذا الحمق تنحوا عن العجل ودعوا المرأة تناديه فلا يكبح جماحه غيرها »

فأصغى الرجال لقوله وتنحوا عنه واقتربت المرأة من الحقل تنادى عجلها بقولها : « الى يا (براونى) الى ياعزيزي الصغير » فوقف العجل قليلا يرهف أذنيه نحو الصوت ثم ما لبث أن عدا نحوها

وارتمى فى أحضانها فرحا

فاغتبط الرجال وفرح العجل وعلى هذه الصورة الجميلة انحل المشكل ففكر الشاب فى نفسه يقول : « حقا إن الشر لا يعالج بمثله وقد دلنى الاختبار أن الناس يزيدون نار الشر اضطراما كلما حاولوا اخماده بالجبر والعسف . هاقد أطاع العجل سيدته باللين واللطف » ففكر فى ذلك طويلا دون أن يهتدى الى حل معقول وكان قد ترك الحقل متمما مسيره حتى وصل الى قرية صغيرة وما كاد يصل آخر القرية حتى أخذ التعب منه مأخذه فتلفت يبحث عن مكان يرتاح فيه ليلته فرأى منزلا صغيرا فى آخر القرية فسار اليه وطلب أن يؤذن له بالمبيت تلك الليلة فاستقبلته صاحبة المنزل بالترحاب وأجلسته بالقرب من الموقد ليستدفىء ثم أخذت تتمم ما كانت فيه من تنفيض أثاث المنزل وترتيبه وكانت قد أتمت كل عملها تقريبا ولم يبق عليها الا تنظيف مائدة الأكل استعدادا ليوم الأحد فمسحتها مسحا جيداً ثم أحضرت خرقة قذرة تريد تنشيفها وما كادت تضع الخرقة على المائدة حتى اتسخت ثانية فأعادت غسلها ورجعت تنشفها بالخرقة عينها فاتسخت مرة أخرى . وكان ابن العراب يراقب عملها بكل انتباه وأخيرا لم يتمالك من أن يقول لها : ماذا تصنعين ياسيدتى ؟ فأجابته : « ألا ترانى أستعد للغد وقد أتممت كل عمل الا هذه المائدة

فقد أعيانى أمر تنظيفها » فأجابها : عبثا تحـاولين يا سيدتى تنظيف المائدة بتلك الخرقة القذرة انما يجب تنظيف الخرقة أولا ثم تمسحين بها وهى نظيفـة » فامتثلت لقوله وتم الأمر كما تشتهي السيدة فشكرته على نصيحته وعند الصباح شكر حسن ضيافتها وسار فى قصده حتى انتهى الى غابة رأى عند مدخلها بضع رجال يصنعون أطار العجلات وعند ما اقترب منهم رآهم يدورون حول قطعة من الخشب دون أن يتمكنوا من احنائها فنظر الى قطعة الخشب فرأى أنها غير ثابتة فى الـكتلة التي يدورون حولها

فـكانوا كلمـا داروا دار الخشب معهم . فتقدم منهم الشاب وطارحهم السلام ثم سألهم عما يصنعون فأجابوه

ـ« ألا ترى إننا نضع اطارا للعجلات وكثيراً ما حاولنا احناء هذه القطعة ولـكن على غير جدوى » فأجابهم بقوله « كان عليكم أن تتأكدوا من ثبات الخشب فى الـكتلة أولا ثم تشرعون فى العمل وإلا تدور معكم كما تدورون» فعملوا باشارته وتم الأمر على أحسن حال وأمضي الشاب ليلته معهم وعند الصباح قام يضرب بقدميه على الارض ثانية حتى وصل الى كلأ من الأرض فيه بعض الرعاة وقد انتشرت مواشيهم ذات اليمين وذات الشمال فاقترب منهم فرآهم يحرقون بعض الأعشاب بغية اضرام النار ولـكن النار ما كانت

لتشتعل حتى كانوا يرمون عليها بعض الاعشاب الندية فتخمد لوقتها ثم أعادوا العمل بنفس الطريقة فأصابهم من الفشل ما أصابهم فى المرة الاولى فتقدم اليهم الشاب قائلا :

ـ أراكم أيها الرفاق تستعجلون بوضعكم الأعشاب الندية قبل شبوب النار وانما عليكم أن تنتظروا ريثما تشب النار تماما فتضيفوا اليها قدر ما تريدون من العشب

فعملوا باشارته وتركوا النار حتى شبت تماما ثم أضافوا اليها أعشابا أخرى فاشتعلت واستخدموها فيما يريدون. ثم أقام الشاب بينهم ريثما استراح وقام يتمم مسيره ثانية مفكرا فى كل ماصادفه فى طريقه وهو يحاول أن يجد له معنى ولكن لم يهتد الى شيء . وفى اليوم التالى وصل الى أجمة أخرى وفيها أبصر الكهف الذى يسكنه الراهب المعتكف فضرب عليه الباب فسمع صوتا ضعيفا يقول :

ـ من هذا الواقف على الباب

فأجابه الشاب : رجل مجرم أثقلته ذنوبه فجاء يكفر عنها

ففتح الباب وخرج منه شيخ عجوز أحنت الايام قوس ظهره وسأله عن جلية أمره فأفضى اليه الشاب بكل ما وقع له فى بيت عرابه وأخبره كذلك بما رآه فى المزرعة حيث كانت الرجال تطارد العجل وكيف نصحهم ثم ختم حديثه قائلا .

ـ ومن ذلك الوقت علمت أن الشر لا يدفع بالشر ولكن لم أهتد حتى الآن الى الطريقة المثلى التى يجب اتباعها لدفع الشر فهل لك ياسيدى أن ترشدنى لذلك»

فأجابه الراهب :

ـ أمض فى حديثك يابنى وأخبرنى بما رأيته أيضا.

فعاد الشاب الى حديثه وأحكى له مارآه فى بيت المرأة وقص عليه أمر الرجال الذين كانوا يصنعون أطار العجلات ثم أخبره بما وقع له مع الرعاة

كل ذلك والراهب مطرق برأسه يصغي اليه جيداً وعند انتهاء الحديث دخل الى كهفه وعاد ثانية وبيده فأس صغير كالذى يستعمله الحطابون ثم قاده الى وسط الأجمة وأشار الى شجرة هناك ثم قال: اقتلع هذه الشجرة من أصولها ثم اقطعها بالفأس الى قطع ثلاث. ففعل ابن العراب ما أمره الراهب وعند انتهاء العمل ذهب الراهب الي كهفه ورجع اليه بقطعة خشب مشتعلة وأمره أن يحرق بها القطع الثلاث حتى تصير كلا منها كالفحمة السوداء وبعد أن فعل ذلك أيضا أمره بغرس القطع المحروقة فى الارض حتى النصف

وعند انتهائه من العمل وضع الراهب يده على كتف الشاب وخاطبه بقوله :

ـ «أترى هذا النهر الصغير عند سفح الجبل. عليك أن تنقل منه الماء بفمك لسقى هذه الاعواد الثلاث . اسق العود الاول كما علمت المرأة وأسق الثانى كما أشرت على صانعى العجلات والثالث كما أشرت على الرماة واستمر على سقيها وتعهدها حتى ترى أن هاته الاعواد الثلاث تنمو وتينع وتصبح كل منها شجرة تفاح صغيرة عند ذلك تكفر عن خطيئتك وتعلم فى الوقت نفسه كيف يمكن اقتلاع بذور الشر من جوانب الانسان »

وعند ما انتهى الراهب من حديثه قفل راجعا الى الكهف وترك الشاب غارقا فى بحار التفكير يضرب اخماسا لأسداس ويقلب وجوه الرأي عساه يهتدى الى معنى لكل ما رآه وأخيراً لم ير بداً من اطاعة أمر الراهب اطاعة عمياء كما أوصاه عرابه فصار ينقل الماء بفمه ويسقى الاعواد طول يومه حتى أعياه التعب وأخذ منه الجوع كل مأخذ فسار الى الكهف ليطلب منه ما يسد به الرمق ولكنه ما كاد يدخل الكهف حتى رأى الراهب جثة هامدة فهاله الأمر وأسقط فى يده لا يدرى ما يصنع وأخيراً تمالك روعه وأخذ ينقب فى أطراف الكهف حتى اذا أصاب شيئا من الخبز الناشف أكله ونام ليلته بالقرب من جثة الراهب وعند الصباح قام الى فأسه وحفر قبراً للراهب بالقرب من الكهف وبينما هو في عمله رأى

جمعا من الناس جاءوا ليزوروا الراهب ومعهم بعض الزاد كعادتهم فأخبرهم بموته فأسفوا عليه وعاونوه فى دفنه فى الحفرة التي أعدها له من قبل ثم ودعه الحاضرون بعد أن تركوا ما معهم من الزاد وقد وعدوه بزيارته من حين لآخر كما كانوا يزورون ساكن الكهف سلفه ومن ثم اشتهر أمره بين سكان الجهات المجاورة للغابة بأنه لا ينفك عن نقل الماء بفمه من النهر حتى الكهف رياضة للنفس وكبحا لجماح الهوى فتقاطروا اليه من كل صوب للتبرك به ومعهم كثير من الهدايا الثمينة فكان يبقى لديه الضروري منها ويوزع الباقي على الفقراء والمساكين . وكان يمضي نصف يومه فى نقل الماء وسقى الأعواد والنصف الآخر فى استقبال زواره المعتدين

مضى عليه حولان لم ينقطع أثناءهما يوما واحد عن نقل الماء وسقى الاعواد ولكنها كانت على حالها السابق لم تتغير مطلقا . وبينما كان ذات يوم جالسا فى كهفه سمع وقع حوافر جواد وصوت انسان يغنى فقام الى الباب ليستطلع الامر واذا به يرى شابا مفتول العضل عليه سيما الشراسة والشر فسأله ابن العراب عن نفسه وعن وجهة قصده فأجابه الرجل وقد أمسك بزمام فرسه يوقفه :

ـ « أنا لص أقطع الطريق على الناس وكلما قتلت انسانا كلما ازددت ابتهاجا فأردد على الدوام الأناشيد التى تردد صداها هذه

الجبال »

ففكر ابن العراب فى نفسه يقول:

« هذا رجل قد جبل على الاجرام وطبع على محض الشر فكيف السبيل الى إرشاده إنه من السهل ارشاد أولئك الذين يأتون الى بمحض ارادتهم يعترفون لى بذنوبهم ويطلبون الصفح والغفران ولكن كيف الطريق الى نزع ماكمن فى نفس هذا اللص من الشر وهو يفتخر بذنوبه ويتيه عجبا بما يقترفه من الآثام » ثم فكر ثانية وقال فى نفسه « رباه كيف العمل ؟ فقد يأوى هذا اللص الى جهة قريبة من الكهف فيوقع الرعب فى قلوب زائريه وبذلك تضيع الثمرة فلا أدرى كيف أعيش بعدها » ثم التفت الى اللص وخاطبه قائلا .

ـ « اعلم ياهذا أن الناس يحضرون عندى يلتمسون التوبة والغفران باعترافهم عن ذنوبهم فلا يفتخرون بها مثلك فاقلع أنت أيضا عن شرورك وآثامك والتمس التوبة قبل فوات الفرصة ان كنت ممن يخافون الله . وان لم تك ثمة ندامة فى قلبك فلا تقترب هذه الجهة لان ذلك يوقع الرعب فى قلوب الذين يفدون على فان لم ترعو فان الله كفيل بعقابك

فاجابه اللص :

ـ« أنا لا أخاف الله ولا أصغى لهذيانك اذ ليس لك على أقل سلطان. أنت تعيش بزهدك وأنا أعيش باللصوصية فكلانا يعمل ليعيش وإذن فالغاية واحدة وان اختلفت الواسطة. وحرى بك أن تدخر مافي نفسك من النصائح للعجائز اللواتى يحضرن مجلسك أما أنا فلا أخدع بزخارف الاقوال. ولكن بما أنك ذكرتنى بعقاب الله فلا يشرق صباح الغد حتى أكون قتلت نفسين ذكرى لهذه النصيحة. وكان بودى أن أقتلك ولكن لا أريد ذلك الآن والويل لك ان اعترضت طريقى بعد اليوم »

ما كاد اللص يتم حديثه ووعيده حتى لوى عنان فرسه وغاب عن الأنظار ولم يسمع له خبراً بعد ذلك فاقام ابن العراب فى كهفه ثمانية أعوام أخرى فى هدوء وسلام .

* * *

جلس ابن العراب فى كهفه ذات مساء بعد أن فرغ من سقي الاعواد كعادته مترقبا قدوم زائر ولكن لم يحضر اليه أحد ذلك المساء فاكتأب لذلك واستولت على نفسه الهموم والاحزان وأخذ يفكر فى معيشته الجديدة فى الكهف ثم تذكر قول اللص وكيف عاب عليه التعيش بالزهد والمسكنة فأنب نفسه ورجع يوبخ ضميره قائلا :

ـ ويح نفسى ماأشقاها !جئت هنا لأكفر عن خطيئتى واذا بى أضاعف ذنوبى وآثامى . نعم قد صدق اللص فى قوله : كلانا يعمل ليعيش أنت بزهدك وانا بسفك الدماء وقتل نفوس الأبرياء ليست هذه هى المعيشة التى أتمسك بها لأكفر عن سيئات نفسى ولم تكن هذه الخطة التى أنتهجها كفيلة بغسل آثامي بماء الطهر والتوبة فقد كان على أن أكتفى باليسير من الخبز ولكن ملك الغرور على نفسى فأصبحت أرتاح لمدح الناس اياي بالزهد والتقوى وها أنا ذا قد استولى على الهم لانى لم أجد بين يدى من يتقرب الى بالمدح والثناء . كلا . كلا ! على أن أفر من وجه الناس وألتمس المعيشة فى ركن آخر من هذه الغابة حيث لا يصل الى أحد منهم »

وما وصل من حديث نفسه الى هذا الحد حتى قام من مكانه وعلى وجهه أمارات العزم الصادق ثم احتمل سلة الخبز وأمسك محراثه بيمينه ليحفر لنفسه كهفا آخر فى ركن مهجور من الغابة وفيما هو فى طريقه قابله اللص ففزع منه ابن العراب وولى الادبار الا أن اللص أسرع فأمسك به وسأله عن قصده فأجابه إنه يريد اعتزال الناس فى ركن من الغابة فعاد اللص وسأله :

ـ ومن أين لك ما تتبلغ به اذا أنت اعتزلتهم؟

فقال : « ذلك لا يهمنى بل أعيش بما يقدره لى رب العالمين »

فسكت اللص ثم أعمل بمهمازه فى الجواد واختفى بين أشجار الغابة .

فقال ابن العراب فى نفسه :

ـ ما على لو نصحته مرة ثانية فانه اليوم ألين عريكة من ذى قبل . ثم صاح بأعلى صوته :

ـ « مازال أمامك متسع من الوقت للتوبة والندامة فارجع عن غيك يا هذا » فرجع اليه اللص مشهرا خنجره يريد قتله ففر ابن العراب من بين يديه وأخذ يعدو فى الغابة بملء فروجه فوقف اللص عن ملاحقته واكتفى بقوله :

ـ « هذه هى المرة الثانية وأنت تقف فى وجهى أيها العجوز فحذار فانك لا تفلت من يدي فى المرة الثالثة »

وفى مساء ذات اليوم عند ما ذهب ابن العراب ليسقى الاعواد كعادته كانت احداها وهى الأولى موضع اعجابه واندهاشه لأنه رآها قد اخضر عودها ودبت الحياة فيها وافترت عن شجرة تفاح صغيرة . فأشرق جبينه وعاد اليه الأمل وقد أيقن أنه سائر فى سبيل التكفير عن خطاياه . ونظر ذات يوم الى السلة التى احتملها من الكهف السابق واذا بها فارغة ليس بها شىء من الخبز فتسلل الى الغابة يبحث عن نبات أو ثمر يعيش عليه اذا به يرى سلة أخرى من

الخبز معلقة على احدى الاغصان فأخذها وعاد الى كهفه وعاش عليها مدة من الزمان لا يعكر صفو حياته الا وعيد اللص اذ كلما تذكر تهديده ترتجف أعضاؤه فرقا، خوفا من أن يقضى اللص عليه قبل تكفير ذنوبه الا أنه فكر فى نفسه ذات يوم فقال:

ـ « أنا أجرمت ومع ذلك أهاب الموت ألا يمكن أن تكون ارادة المولى أن أكفر عن خطيئتى بالموت »

وما وصل من مناجاة نفسه الى هذا الحد حتى سمع صوت اللص يصخب ويلعن كمن يخاطب شخصا آخر فقال فى نفسه « إنما الخير والشر بيد الله » وقام لوقته يريد مقابلة اللص فرآه ممتطيا فرسه وقد أردف خلفه رجلا آخر مكبل اليدين والرجلين يوسعه لكما وضربا ويستنزل عليه اللعنات طول الطريق. فوقف ابن العراب فى وجهه وصاح به.

ـ الى أين أنت ذاهب بهذا الرجل ؟

ـ هذا ابن أحد التجار أبى أن يعترف لى أين أموال أبيه ولكني سوف أذيقه كل صنوف العذاب حتى يقر لى بالمكان

ثم أعمل المهماز فى جواده يريد السير ولكن ابن العراب كان ممسكا بالفرس بكل قوته فلم يدعه يمر وقال له بلهجة الغاضب:

ـ دع هذا الرجل وشأنه .

عنـد ذلك استشاط اللص من الغضب ورفع يده يريد لطمه وهو يقول :

ـ « أتريد أن تذوق طعم العذاب الذى أعددته لهذا الرجل ؟ تنح عن طريقى والا قتلتك شر قتلة »

ولـكن ابن العـراب لم يتزعزع من مكانه بل وقف ثابت الجأش وأجاب اللص بقوله .

« لا أدعك تنقل خطوة واحـدة دون أن تمـر على جثتى وتطأها بسنابك جوادك فانا لا أخاف سوى رب العالمين فهو الذى يثبت قدماى الآن لأجاهد فى سبيل الخير فلتكن مشيئة الله »

فأطرق اللص واجما ثم أخرج سكينا صغيرا قطع به قيود الشاب ونظر الى الرجل وابن العراب وهو يقول :

« أغربا الآن عن وجهى وحذار أن تقف فى طريقى مرة أخرى أيها العجوز »

فقفز ابن التاجر وانطلق يعدو فى الغابة. أما اللص فكان على وشك أن يعلو جواده ثانية حينما أمسك الراهب بطرف ثوبه وأخذ فى نصحه وارشاده وكان اللص فى هذه المرة مطرقا لا ينبس ببنت شفة الا أنه عاد فهز رأسه ثانية وركض بجواده نحو الغابة

وفى اليوم التالى لهذه الحادثة وجد الراهب أن الحياة دبت

فى العود الثانى ونمت شجيرة تفاح أخرى بجانب الاولى

مرت على هذه الحادثة عشرة أعوام وقد جلس ابن العراب ذات يوم فى كهفه بطمأنينة وسلام وقلبه يطفح بشرا وسرورا ولا يعكر صفو هنائه خوف أو طمع وكان يفكر فى نعم المولى على عباده وكيف ان الله جلت قدرته هيأ لهم كل ما فيه غبطتهم وسعادتهم وانهم هم الذين يوردون أنفسهم موارد البؤس والشقاء ويعملون على تعكير صفو الحياة بأطماعهم وشرورهم ثم انتقل بفكره الى الانسان وما جبل عليه من شر والى الحياة الاجتماعية وما فيها من أمراض وآلام فقال فى نفسه :

« عار على ألا أبرح مكانى هذا بل على أن أسعى فى الارض أرشد الناس الى الطريقة المثلى لنزع الشر من بين جوانبهم !!

وبينما هو غارق فى هذه الهواجس اذا باللص يمر من أمامه فتركه يمر بدون أن يتعرض له بل قال فى نفسه .

« ان الكلام مع مثله لا يجدى نفعا لانه لا يفقه لما أقول معنى »

ولكنه ما لبث أن غير عزمه وقام مسرعا خلف اللص فرآه مغبر اللون مطرق الرأس خاشع البصر فأشفق عليه ووضع يده على ركبته وخاطبه قائلا :

« كن رحيما بنفسك يا أخى . انك طالما عثت فى الارض فسادا

وأهلكت نفوسا بريئة وكنت شرا ووبالا على الانسانية ومع ذلك فان الله رحيم بعباده يقبل توبة التائب ويعفو عن اساءة المسيء فهلا رجعت عن ضلالك وأشفقت على البقية الباقية من حياتك»

فوجم اللص لايتكلم ثم عاد يريد السير ثانية وهو يقول «دعني وشأني» ولكن ابن العراب لم ييأس بل طفرت من عينه دمعة سخينة فمسحها بطرف ردائه وأقبل على ارشاده ونصحه فنظر اللص اليه طويلا ثم رمى نفسه عن جواده وركع امامه يقول .

ـ ها أنت ياسيدى قد ملكت على نفسى وظفرت بها أخيراً بعد أن قاومتك عشرين عاما فافعل بى ماتشاء فانى رهن اشارتك اذ لاطاقة لى بأكثر من ذلك . قد استفزنى الغضب عند ماوقفت فى طريقى تريد نصحى وارشادى فى المرة الاولى ولكن ماكدت تعتزل الناس وتزهد فى أعطياتهم حتى أخذت أقدر أقوالك ونصائحك حق قدرها اذ علمت انك لم تنصحنى لغاية أو فائدة وانما قلت ما قلته لمحض الخير والاحسان . ومنذ ذلك اليوم قدرت جهادك حق قدره وساقنى عامل الاعجاب بك الى احضار الخبز اليك فى سلة كنت أعلقها على غصن احدى الاشجار القريبة من كهفك

فتذكر ابن العراب عند ذلك تلك الحادثة التى مرت به عند ماكان بضيافة المرأة وكيف انها لم تتمكن من تنظيف المائدة الا

بعد أن غسلت تلك الخرقة التى كانت بها، كذلك هو لم يتمكن من تطهير قلب غيره الا بعد أن طهر ذات نفسه ثم استطرد اللص حديثه قائلا : ولكن حتى ذلك الوقت كنت معجبا بك فقط ولم تؤثر نصائحك فى نفسي تأثيرها المطلوب الا بعد ما علمت انك لاتهاب الموت »

فتذكر ابن العراب حينئذ ما رآه من أمر الصناع الذين كانوا يحاولون احناء القطعة الخشبية وبانهم لم يتمكنوا من ذلك الا بعد أن ثبتوا الكتلة فى مكانها تمام الثبات فعلم أن نصائحه لم تؤثر فى اللص ذلك التأثير البليغ إلا بعد أن طرح عن نفسه رداء الخوف من الموت وأشعر قلبه حلاوة الايمان الصادق ، ثم ختم اللص حديثه قائلا : « ولكن لم يحترق قلبي بنار التوبة والاخلاص الا حينما رأيتك تشفق على وتبكى لأجلى »

عند ذلك أخذ ابن العراب بيده وذهب به حيث الاعواد الثلاثة أيضا فأشرق شعاع الامل بين جوانب نفسه وعلم أن الله قد تقبل توبته وغفر خطيئته وتذكر كيف أن الرعاة لم تتمكن من احراق الاعشاب واضرامها الا بعد أن ذكت النار تماما فعلم أن اللص لم تتم توبته الا بعد أن ذكت نفس مرشده تماما ، عند ذلك قضى نحبه قرير العين هنيء البال بعد ما أفضى الى اللص بكل ما علمه وتعلمه ثم أوصاه بارشاد الناس الى طريق الخير بالقدوة الصالحة والمثل الطيب.

— ٥ —

مكيدة شيطانية

وأما الخمر فهى تزيل عقلا
فتحت به مغالق مبهمات
ولو ناجتك أقداح الندامى
عدت عن حملها متندمات
تذيع السر من حر وعبد
وتعرب عن كنائن معجمات
فان هلكت خروسك ام ليلى
فما أنا من صحابك واللمات
فمنك تعود أبنية المعالى
وأطلال النهى متهدمات
وقد يضحى صحابك اهل سجن
وتلقين الكؤوس محطمات

« للمعرى »

فى صباح ذات يوم خرج قروى من كوخه الحقير يحمل تحت بطه فطور ذلك اليوم موليا وجهه نحو الحقل الذى ما كاد يصل

اليه حتى خلع معطفه ورماه تحت احدى الشجيرات بعد أن لف فيه ما معه من الخبز . ثم شرع فى العمل . وبعد هنيهة أنهكه الجوع وأضنى التعب جواده . فأطلق سراح الجواد وجلس هو ليأكل ما أعده للفطور ولما تفقد الخبز لم يجده بين طيات ثيابه فأخذ يقلب المعطف بين يديه ويدقق النظر فى كل جزئياته . ولكنه عبثا كان يحاول اذ أن الشيطان كان قد سبقه الى الشجيرة . وسرق ما فى المعطف من الطعام ثم جلس منتظرا صخب القروي ولعناته على سارق الخبز الآن فأله قد خاب لأن القروى مع ما داخله من الأسف لم يتأثر كثيراً لفقد الطعام بل اكتفى بقوله : « ماعلى لو صبرت فان الجوع ليس بقاتلى وربما كان الآخذ فى حاجة الى ذلك الخبز فليهنأ به » قال هذا القول وذهب تواً الى بئر قريب منه حيث أطفأ ظمأه وارتاح قليلا من وعثاء العمل ثم عاد فأمسك بعنان جواده واستأنف العمل ثانية :

أما الشيطان فقد استاء من عمل القروى اذ رآه أعقل من أن يقع فى الخطيئة فأسرها فى نفسه وعزم أن يخبر رئيسه بالامر . وبالفعل ذهب من وقته الى ابليس وقص عليه الحكاية وكيف أن القروى لم يعبأ بفقد الخبز ولم يسخط على آكله بل تمنى له الهناء والسرور ، فما كاد ابليس يسمع ذلك حتى غلى مرجل حقده وانتهر

تلميذه قائلا : « انما اللوم فى ذلك راجع عليك لانك لم تقم بمهمتك كما يجب واعلم ان القرويين اذا ابتدأوا ينهجون على هذا المنوال واقتفى اثرهم فى ذلك زوجاتهم فالويل لنا نحن معاشر الأبالسة فالامر خطير لايجمل بنا أن نتغافل عنه فانكص على عقبيك سريعا وأصلح خطأك هذا وان لم تنتصر على ذلك القروي الساذج فى ظرف ثلاث سنين فسوف أريك كيف يكون جزاء الاهمال» فعاد الشيطان الى الأرض مسرعا وهو ينتفض فرقا وقد تقطعت نياط قلبه من تهديد الرئيس ، وأخذ من وقته يفكر فى حيلة يوقع بها ذلك المسكين فى حبائله ، واخيراً اهتدى الى مشروع وجده كفيلا بنجاحه فتزيا بزى أحد العمال وتمكن من أن يدخل فى خدمة القروى .

وفي عامه الأول نصحه بأن يبذر حبوبه فى أرض رطبة فعمل القروي بنصيحته وكان الجو من حسن حظه جافا فأنتجت الارض محصولا جيدا فتمكن من ملء مخازنه وأصبح لديه كميات وافرة من القمح تزيد عن حاجاته .وفى عامه التالى عاد اليه الشيطان ينصحه بأن يبذر حبوبه على ربوة من الأرض ثم جاء وقت الحصاد وكان الصيف رطبا فاستفاد القروى من النصيحة وتوفر لديه شيء كثير من القمح يربو عما جناه فى عامه السابق فحار فى أمره ولم يدر ماذا يصنع

بكل ذلك القمح الكثير فوسوس اليه الشيطان أن يستخرج منه نوعا من الخمر ففعل، وكان الخمر المستخرج قويا شديد التأثير فسر بهذا الاكتشاف وأخذ يشرب منه هو وزوجته وأهدى الى أصدقائه الشيء الكثير. عند ذلك ذهب الشيطان الى رئيسه فرحا مستبشرا وقص عليه ما فعله لاغواء القروى فقام ابليس مسرعا ليشاهد الامر بنفسه ويتحقق صدق مقاله ولما وصلا الى منزل القروى وجدا أن صاحب المنزل يستعد لحفلة ساهرة دعا فيها كل جيرانه الاعزاء ثم رأيا وفود المدعوين تقبل الى المنزل زرافات ووحدانا، وصاحبة الدار قائمة بخدمتهم تدور عليهم بالاواني، اذا بها قد تعثرت فوقعت الاوانى من يدها وسال الخمر على الارض فاحتدم زوجها غضبا وصاح بها يقول « ما الذي دهاك أيتها العسراء حتى أرهقت هذه الخمرة اللذيذة على بساط الغرفة . أظننت أن مابين يديك من ماء البئر حتى أخذت فى اتلافه واسرافه» وما كاد الشيطان يسمع هذه الكلمات حتى غمز رئيسه قائلا : « أسامع أنت كلام ذلك القروى الساذج الذى لم يهتم لفقد كسرة الخبز» وبينما كان القروى ينتهر أمرأته ويلومها على فعلتها اذا بقروى فقير دخل عليهم متطفلا واستوى جالسا على المائدة ينتظر اكرام صاحب الدار ولما طال به الجلوس تململ صاحب المنزل من جلوسه وتمتم يقول: « أنا ليس فى وسعى أن أقدم

شرابا لكل من يتطفل على موائدنا » فسمع ابليس هـذه الكلمات وسر فى نفسه بهذه النتيجة الا أن تلميذه قال وهو يبتسم :انتظر قليلا فسوف ترى ماهو أعجب. وفعلا ماكاد يتم قوله هذا حتى كان القوم أخذتهم نشوة الخمر فأصبحوا يخادعون بعضهم البعض بالفاظ ملؤها الملق والرياء . عند ذلك قال ابليس : « اذا كان بعض الخمر يجعلهم على هذه الحال يروغون كالثعالب ويتملقون بعضهم البعض ولكنك سوف تراهم عقب الـكأس الثانية كالذئاب المفترسة ينهشون لحوم بعضهم البعض » فما أتم الشيطان هذه الكلمات حتى كان الشراب يدور على القوم ثانية ، ثم ارتفعت من بينهم دواعى الحشمة وأصبحوا يتبادلون وحشي الكلام وقبيح الألفاظ ثم أدى بهم الأمر الى المضاربة فالملاكمة فتلألأ وجه ابليس بشرا وهنأ تلميذه بذلك الفوز الباهر قائلا: « هذه هى الخطوة الاولى فى سبيل النصر » فأجابه تلميذه: « انتظر حتى النهاية ترماهو أغرب فانهم الآن كالذئاب يكاد أحدهم يفـترس صـديقه ولكنك سوف تراهم كالخنازير عقب الـكأس الثالثة »

عندما دارت الـكؤوس عليهم مرة ثالثة فعلت أصواتهم وزاد صخبهم وأصبح كل منهم يلعن ويشتم بلا سبب ومن غير داع . وبعد برهة وجيزة انفرط عقد جمعهم وأخذوا ينسلون من مـكان

الدعوة جماعات ووحدانا يترنحون سكرا ويتمايلون ذات اليمين وذات الشمال ، ثم ذهب المضيف أثرهم ليشيعهم ولكنه ماكاد يخطو بضع خطوات حتى تعثر فى مشيته فوقع فى حفرة مملوءة بالأوحال وتلطخ بها من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، فازداد ابليس لهذا المنظر بهجة وسرورا والتفت الى تلميذه يقول « لله درك فلقد كان نجاحك باهراً وفوزك مبينا ولكن خبرنى كيف صنعت هذا الشراب فلا ريب أنك أضفت اليه بضع نقط من دم الثعالب وهذا ماحدا بهم لان يروغوا ويتملقوا بعضهم البعض فى الكأس الاولى، ثم أظن أنك أضفت اليه بعضا من دم الذئاب اذ كان نتيجة ذلك أنهم أصبحوا كالذئاب العاوية . وأخالك أتممت العمل بوضع نقط من دم الخنزير حتى أصبحوا يماثلون الخنازير عقب الكاس الثالثة » فقال الشيطان :

ـ كلا فانك لم تصب كبد الحقيقة فليست هي الطريقة وكل مافى الامر أنى بذلت مافى وسعى لان أجعل ذلك القروى يملك حبوبا أكثر مما يحتاج اليها فالانسان يجول فى عروقه دماء الحيوانية على الدوام وتظل هذه الغريزة كامنة فى نفسه طالما كان يملك من حطام الدنيا أقل من ضرورياته . يدلك على ذلك ماأظهره القروي عندما تحرشت به في مبدأ الامر ولكنه ماكاد يتوفر لديه أكثر مما يحتاج اليه حتى أعماه الغنى وتمادى به الغرور فأخذ يبحث عن

دواعى الملاهي والسرور وهنا سنحت الفرصة لاغوائه فأخـذت بيده الي طريقة من طرق الغواية اذ أرشدته الى صنع الخمر فاستلذها المسكين لسوء حظه وشربها عذبة سائغة فكان فى ذلك كالساعى الى حتفه بظلفه فانه ما كاد يكفر بأنعم الله حين اعطيتـه خمرة تذهب برشـده حتى ظهر ما كمن فى نفسه من تلك الدماء الخبيثة ، دماء الحيوانية ، فأصبح وحشا ضاريا بعد أن كان بشراً سويا وهو يظل كذلك وحشا مفترسا بعيدا عن مناهج الانسانية طالما يعاقر تلك المادة الدنسة

— ٦ —

ثلاثة أسئلة

أراد أحد الملوك مرة أن يقف على اجابة ثلاثة أسئلة جالت بخاطره وظن أنه إن تم له ذلك فلا يكون الفشل حليفه قط فى أى مشروع يأخذ على عاتقه القيام به وما كاد هذا الفكر يستقر فى فؤاده حتى أعلن فى طول البلاد وعرضها أن من يجيب الملك على أسئلته الثلاثة الآتية ينال جائزة قيمة أما الاسئلة فهى :

(١) كيف يعرف الانسان الوقت المناسب للشروع فى أى عمل ؟

(٢) من هم الذين يجب الثقة بهم أو الابتعاد عنهم ؟

(٣) كيف يتسنى له معرفة أهم الاشياء التى يشتغل بها ؟

وما كاد هذا يذاع فى المدائن حتى تقاطر اليه العلماء من كل صوب الا أنهم ذهبوا فى اجاباتهم مذاهب شتى .

فقال أحدهم اجابة عن السؤال الاول : اذا أراد الانسان أن يعرف حقيقة الوقت المناسب لبدء كل عمل فما عليه الا أن يخط جدولا يكتب فيه أسماء الايام والشهور والسنين محسوبة مقدما ويواظب تماما على العمل به وبذلك يمكنه أن يؤدى كل عمل فى

وقته المعين . وقال آخرون : أن من المحال لاى انسان أن يتنبأ بالوقت المناسب لكل شيء وانما الواجب عليه أن يراقب بكل دقة وانتباه مجرى سير الاحوال التي تحيط به ومتى علم ذلك صار من السهل عليه معرفة أى الأشياء أكثر اهمية فيبدأ بها فى وقتها . إلا أن بعضهم اعترض عليهم فقال مهما يكن الملك يقظا وءاعيا لكل مايحدث حوله فانه لايتوصل لمعرفة ذلك الا بعقده مجلسا يتضمن كبار العلماء والعقلاء ليساعدوه بأفكارهم على تحديد الوقت المناسب فرد عليهم آخرون بأن هناك كثيراً من المسائل التي يجب البت فيها فى الحال ولا يمكن أرجاؤها حتى ينظر فيها المجلس . فالطريقة المثلى لمعرفة ذلك هو التنبؤ بحوادث المستقبل وبما أن هذا لايفقهه الا السحرة فالاجدر بالانسان مشاورتهم فى الامر

وكان ما أصاب الاجابة عن السؤال الثانى من الاختلاف لا يقل عما أصاب سابقه فقال احدهم إن أنفع الناس للملك وأجدرهم بثقته هم وزراؤه ومستشاروه وقل آخرون الكهنة ورؤساء الدين وقال ثالث نطس الاطباء وقال رابع إن المحاربين وطائفة المجاهدين هم الاكثر ضرورة للملك دون سراهم

أما السؤال الثالث فكان نصيب الاجابة عنه من تباين الآراء كذلك مالا يقل عن سابقيه فأجاب بعضهم بأن أنفع الاشياء للملك

هو العلم وقال ثان المهارة فى الفنون الحربية وقال غيره الاشتغال بالامور الدينية .

ولما رأى الملك اختلاف العلماء وتباين أفكارهم لم يقتنع باجابتهم فلم ير أحدا منهم جديراً بالجائزة المعدة . ولما لم يجد الملك ضالته المنشودة فى من وفد الى حضرته من العلماء وكانت رغبته تزداد فى الوقوف على أجوبة صحيحة لاسئلته الهامة عمد الى المفاوضة مع ناسك مشهور بوافر عقله وغزير حكمته فقام لوقته وارتدى ملابس بسيطة لان هذا الناسك لا يقابل الا العامة ثم سار نحو الغابة التى اتخذها ذلك العابد مسكنا لا يبرحه ولما دنا من صومعته ترجل عن جواده وذهب اليه وحيدا تاركا وراءه جنده وحراسه

قرب الملك منه فوجده يحفر فى الارض أمام كوخه فلما وقعت عينا الناسك عليه حياه واستمر فى عمله وبالنسبة لضعف جسمه ونحوله كان كلما جرف بجرفته قطعة من الارض علت زفراته وتصعدت أنفاسه فتقدم نحوه الملك مخاطبا اياه « انى أتيت اليك أيها الناسك العاقل ملتمسا منك الاجابة عن ثلاثة أسئلة ، فهلا توليني سرورا بتحقيق أمنيتى . » فأصغى اليه الناسك الا أنه لم يجبه بكلمة واحدة واستأنف الحفر . فزاد الملك قائلا « اني لأخالك قد تعبت الآن فأذن لى بالاشتغال برهة حتى تستعيض بعض قوتك »

فشكره الناسك وأعطاه المجرفة وجلس هو ليستريح - وبعد أن جرف الملك مرتين توقف وأعاد أسئلته ثانيا فلم يعره الناسك أقل انتباه ولم ينبس ببنت شفة وقام لوقته ومد يده للمجرفة يطلبها من الملك الا أن هذا أبى أن يعطيه أياها واستمر فى الحفر حتى مضت ساعتان وابتدأ قرص الشمس أن يختفى وراء الاشجار واذ ذاك توقف الملك عن العمل وقال للناسك : « انى قصدتك أيها الحكيم لتجيبنى على أسئلتى فان لم يكن لك علم بها فاخبرنى حتى أنصرف وأعود من حيث أتيت » فقال الناسك بلهجة تدل على الاهتمام « التفت . ألا ترى رجلا مقبلا يعدو نحونا ! هاهو يجب أن نعرف أولا من هو » فالتفت الملك فرأى رجلا ذا لحية طويلة يتقدم مسرعا نحوهما واضعاً كلتا يديه على بطنه والدم يسيل من تحتهما

ما كاد هذا الغريب يصل حيث يجلس الملك حتى خر على الأرض يصرخ من الألم ويئن أنات متواصلة ففك الملك والناسك ثيابه المضرجة بالدماء والفيا جرحاً بليغا يتدفق منه الدم فعنى به الملك وضمد جرحه بمنديله ومنشفة كانت عند الناسك. ولكن مع كل هذا لم تقف حركة خروج الدم لذلك كان الملك نفسه يزيح العصابة ويمتص الدم بحرارة زائدة ويغسل الجرح مرات عديدة ثم يعيد اليه الضمادة ثانية وهكذا حتى انقطع الدم وانتعش الرجل وطلب جرعة ماء فاحضر

الملك له الوعاء وأسقاه منه كفايته وفى ذلك الوقت مالت الشمس الى المغيب وأقبل الليل بنسماته الباردة فحمل الملك والناسك الجريح وأدخلاه الكوخ وما كادا يوسدانه الفراش حتى أطبق عينيه واستغرق فى سبات عميق . أما الملك فقد أعيته مشقة العمل وانهكه تعب الحركة فجثا لوقته عند مدخل الكوخ واستسلم أيضا لنوم هادىء طويل .

مضت تلك الليلة ونام الملك فيها ملء جفنيه ولما استيقظ فى الصباح أراد أن يعيد الى ذاكرته حوادث الليلة الماضية إلا أنه قبل أن يتذكر أين هو ؟ ومن ذاك الغريب النائم علي الفراش الناظـر اليـه بعينين براقتين سمـع صوتا ضعيفا يقول « سامحنى » فعلم أنه صوت ذلك الغريب الجريح فالتفت اليـه وقال يلوح لى أن ليس بيني وبينك سابق معرفة فعلام تطلب مسامحتى ؟ » فقال نعم إنك لا تعرفنى ولكني اعرفك حق المعرفة . فأنا عدوك الالد الذى حلف لينتقمن منك لأنك أعدمت أخاه واغتصبت أملاكه وقد علمت بمجيئك الى هنا منفردا فعزمت على قتلك عند أوبتك ولكني عندما رأيتك لم ترجع وقد انقضى اليوم خرجت من مكمنى لافتش عنك عسى أن التقى بك واذا بحـراسك قد عرفونى فأطلقوا على بعض غداراتهم وأصابونى فهربت من أمامهم والدم يتدفق والالام تزداد حتى رماني الله بين يديك فضمدت جرحى وعطفت على . فما أطهر

قلبك وأرق عواطفك ! ياربّاه انى أتيت لاقتلك ولكنك أنقذتني من الموت وبعثت فى الحياة ثانية فلأشكرنك ماحييت ولن أنسى هاتيك الايادى البيضاء مادام فى عرق ينبض ولى لسان ينطق ولأكونن لك الخادم المطيع والعبد الأمين مادمت أستنشق نسمات الحياة وسآمر أولادى أن يقتفوا أثرى من بعدى فنوقف حياتنا جميعا لخدمة الملك »

ولا تسل عن سرور الملك وتشدد فقد كان عظيما ولا شك فى ذلك . فان الصلح الذى عقده مع عدو من ألد خصومه بدون أن يبذل فى سبيله أقل مجهود يعد حقا صفقة رابحة له . كيف لا وانه بذلك الصلح اجتز أسباب البغضاء التى أضرمت فى فؤاد ذلك العدو نار العداء واقتلع بذور الشحناء التي نبتت فى قلبه على توالى الزمن وأقام مكانها فى رحبة ذلك القلب نفسه قصور المحبة تظللها أشجار الطاعة ودوحات الاخلاص . ثم أمر طبيبه الخاص أن أن يعني بالجريح عنايه تامة ووعده برد كل أملاكه الضائعة . وبعدأن استأذن الملك من الجريح بالانصراف عزم على الرحيل إلا أنه ودأن يقابل الناسك لآخر مرة عسى أن يهديه الى ضالته المنشودة فوجده يبذر الحب فى الارض فلما قرب منه قال له « أتوسل اليك للمرة الأخيرة أن تجيبني على أسئلتى حتى يطمئن بالى وتكون قد

أسديت لى جميلا لا أنساه » فرفع الناسك اليه بصره وقال« إنك لقد أجبت تماما على كل اسئلتك »فدهش الملك وقال متعجبا« كيف ذلك وماذا تعني ، فـرد عليه الناسك بقوله :« ألم تر أنك لو لم تعطف على بالامس ولم ترحم شيخوختي وضعفي وتركتني أقاسي آلام العمل وحدي فان عـدوك كان لا بد قاتلك واذ ذاك كنت تمض أصبع الندم حسرة على عدم بقائك معي . فاعلم اذن أن أثمن أوقاتك هو وقت اشتغالك بالحفر وأنفع رجل وقتئذ هو أنا واسداؤك الخير هو أهم ما اشتغلت به . ثم عندما وصل الينا الرجل يتخبط فى دمائه كان أهم وقتك وقت اعتنائك به لانك لو لم تضمد جراحه لقضى نحبه بدون أن تطفىء نار بغضائه وتحول عداوته المرة الى صداقة متينة وطاعة دائمـة وإذ ذاك كان الجريح بطل ذلك الوقت وما قدمته له من أيادى الخير أهم الاشياء وأنفعها لديك وأكثرها فائدة لك . فاعلم جيدا أن ليس هناك الاوقت واحـد هو من الاهمية بمكان وذلك الوقت هو (الآ ن) أو البرهة التي أنت فيها وماهذا إلا لانك تكون فيه مالكا ومستجمعا لكل قواك الحالية وأهم رجل هو من تتكلم معه لانك لست عالما بما هو مسطر لك فى سجل القدر وفعلك الخير له أنفس ماتشتغل به لان لهذا الغرض وحـده دون سواه ظهر الانسان على مسرح الحياة

— ٧ —

الياس

هناك تحت ظل حكومة أوفا عاش رجل يدعى الياس مات والده بعد أن أتم تأهيله بحول كامل غير تارك وراءه الا ثروة واسعة لاتزيد على سبعة أفراس وبقرتين وما يقرب من العشرين رأسا من الغنم الا أنه فوق ذلك خلف لفلذة كبده الحزم والجد فكانا نعم الثراء وحبذ الارث العظيم. أجل فقد كان الياس حازما مجدا لا يدع فرصة تمر بدون اقتناص ولا ينى فى المثابرة على اصلاح شؤونه. فكان يقوم مبكرا والناس نيام ويداف الى فراشه بعد أن يهجع كل انسان. وجده وحزمه كانا كفيلين بتوسيع نطاق ممتلكاته وازدياد ثروته التى بلغت فى نهاية الخمسة والثلاثين عاما مائتين من الخيل ومائة وخمسين رأسا من الماشية والف ومائتين من النعاج فضلا عمن كانوا يمرحون فى مزرعته من الرجال المأجورين والنساء المأجورات أولئك لرعاية ماشيته وقطعانه وهؤلاء لحلب بقره وأفراسه وعمل الكومس (١) واستخراج الجبن والزبد. ومن ذلك الوقت بسم له الدهر فأصبح الياس رب ثروة وافرة وصاحب أملاك واسعة

---

(١) شراب روسى مخمر يحضر من لبن الافراس

حسده عليها جيرانه ومواطنوه فقالوا عنه « الياس رجل مبخت حالفه الجد فرافقته السعادة وأقبلت عليه الدنيا فأصبحت طوع بنانه » ثم ذاع صيته وعلت شهرته وتهافت على زيارته كثيرون من سراة القوم وتسابق الى معرفته العدد العظيم ممن ودوا التقرب منه فكان يكرم مثواهم ويذبح لهم الذبائح ويقدم لهم كل شهى من الطعام ولذيذ من الشراب

لم يرزق الياس الا ولدان وابنة كانوا عضده الاقوى أيام بؤسه يفلحون له الارض ويرعون الماشية ويباشرون كل أعمالهم بأنفسهم. أما وقد ارتاش الياس فقد تصارعت بين نفسيهما عناصر المفاسد ثم لقى اكبرهما مصرعه فى عراك وأدمن الآخر على تعاطى المسكرات وانقاد لامرأته فى عدم اطاعة أبيه والاذعان لاوامره فانفصل عنه بعد أن لم يطق معه صبرا وقد منحه الياس منزلا يأويه وجاد عليه ببعض الماشية كى تعاونه على الحياة فكانت هذه التجزئة سببا فى تصغير ثروته وفاتحة لمصائب جمة. فعلى أثرها انتشر وباء فتاك حصد كثيرا من اغنامه وتلا ذلك سوء محصول القمح ثم أغارت عليه قبائل الكرغيز فسلبته الصافنات من جياده فأتى هذا ضغثا على إباله وهكذا نخرت عوامل الضعف فى ذلك الثراء فانهار عليه بنيانه وأخذت عوامل التلاشي تعبث ببقايا تلك الثروة الدارسة بينا

كان الياس يوسـع الخطا نحو القبر وينن تحت عبء الشيخوخة الثقيل اذ أربى على السبعين وقد انقطعت عنه أخبار ابنه القاصى اما الابنة فعدا عليها المنون واختطفها من بين ابويها وبذلك فقد الشيخ وزوجه آخر نصير لهما فى الحياة ..

نزلت بهما كل هاتيك المصائب وأحاطتهما الشدة احاطة السوار بالمعصم فألجأتهما الى بيع كل ماعندهما من بقايا اثاث المجد القديم حتى أصبحا لا يملكان الا مايستر عورتهما من ثياب أبلاها الدهر والحدثان وما هى الا عشية وضحاها حتى كنت ترى الشيخ وزوجه فى حالة يستمطران منها اكف المحسنين ويسألان العطف بعجوزين تقوس ظهراهما تحت عبء الفاقة والكبر وهكذا أنزلهما الزمان في الحضيض بعد السنام وصدمهم بكلكله فاسترد ما أعارهم من مجد مؤثل وعز قديم

بجوار منزل الياس كان يقطن محمد شاه رجل طيب القلب كريم الاخلاق الا أنه ليس من ذوى الثراء الواسع. ماكاد هذا الرجل يرى ماوصل اليه جاره حتى تذكر مجده الضائع وكرمه الماضي وعاودته ذكرى تلك السعادة التى تقلب بين أعطافها زمنا طويلا فعطف عليهما وقال لهما « هيا عيشا معى ايها الرفيقين واشتغلا بقدر ماتسمح به قوتكما وأنا الكفيل بأمر طعامكما ولباسكما وقضاء كل

مهامكما » فلم يسعهما الا أن يشكراه على حسن صنيعه وأصبحا من ذلك الوقت مشمولين برعايته بعد أن انتظما فى سلك خدمته

لقد بدا لهما المركز حرجا والعمل شاقا فى أول الامر الا انهما ألفاه بتأثير العادة واستمرا يباشران كل مايقويان عليه من العمل بهمة ونشاط. وكان محمد شاه يرى أن من منفعته الاحتفاظ بمثل هذين العاملين لانهما تمرنا على كثير من الاعمال فضلا عما كان يبدو عليهما من اليقظة والنشاط الا أنه من جهة اخرى كان كلما تمثلت أمام عينيه شدة السقطة التى لاقاها هذان المنكودان ـ سقطة المجد من أعلى قمته الى أعماق هاوية المذلة السحيقة ـ هز رأسه أسفا وحزنا

واتفق مرة أن وفد على محمد شاه بعض أقاربه القاطنين لزيارته وبرفقتهم أحد المتصوفين (ملا) وبينماهم جالسون يشربون الكومس واذا بشيخ نقض الدهر مرته يمر من أمامهم فالتفت اليهم صاحب الدار قائلا . « ألا ترون هذا الرجل فأجابه احدهم نعم وماذا بعد ! فاستمر يقول :

« إن اسمه الياس ولقد أتى عليه يوم كان فيه أغنى رجل بيننا وأكبر وجيه فى هذه النواحى أما الآن وقد قلب له الدهر مجنه فأصبح مشمودا ضريكا فقد أشفقت عليه هو وزوجه وشملتهما بعطفى وأدخلتهما فى خدمتى يشتغلان معى بقدر ماتسمح ارادتهما

واني لاأخالكم قد سمعتم بهذا الاسم من قبل .

فقال الزائر « كيف لاوقد عبقت شهرته فى طول البلاد وعرضها » واستمر المضيف يقول : ـ وهو وزوجه يقيمان معى الآن ويشتغلان عندى كعاملين »

فهز الزائر رأسه بعد أن بدت على وجهه علامات الأسف وقال متأوها ـ « ما أشبه الحظ بدورة الفلك فهو آونة يرفع المرء الى سماء السعادة وجنات النعيم وأخرى يؤدى به الى مقر البؤس والنحوس ولكن هل قلبه ياترى مفعم بالحزن والأسى على تلك السعادة المفقودة والثروة الضائعة ! » فقال محمد شاه :

ـ ومن يدرى فهو يعيش عيشة يحوطها الهدوء وتظللها السكينة ويباشر العمل بهمة لاتعرف الكلل . فقال الضيف مخاطبا صاحب الدار :

ـ أتأذن لى ببضع دقائق أقضيها فى محادثة هذا الشيخ لأستجلى بعض أسرار حياته الماضية

ـ ولم لا ؟

فناداه صاحب الدار قائلا « تعال أيها الشيخ الجليل لتشاركنا فى بعض كؤوس من الكومس نقدمها اليك »

فاقترب الياس محييا سيده وسائر ضيوفه ثم ناوله كأسا الا

أنه ماكاد يأخـذ منها جرعة نخب الحاضرين حتى أعادها مكانها وجلس بجانب الباب وكـذا أتت زوجته وجلست مختبئة وراء الستائر •بعدئذ ابتدأ الضيف فى محادثته قائلا :

ـ اننا على ماأظن مسيئون اليك بوجودك بيننا فان ذلك ربما يذكرك سعادتك الماضيه ويعيد اليك أشجانك الحـاضرة

فتبسم الياس وقال:

ـ إن أردتم أن أحدثكم عن السعادة والشقاء فلا أظنكم مصدقينى والأحرى بكم أن تسألوا زوجتى فهى امرأة وكل مافى قلبها يظهر جليا على لسانها فـكلامها الصـدق وحديثها هو كل مايختلج فى أعماق فؤادها

ـ فادار الزائر وجهه نحو الستائر وسأل زوجة الشيخ كيف تميسين بين سعادتك الغابرة وشقائك الحاضر فأجابته قائلة

ـاصغ الى فسأفضى اليك بالحقيقة . قضيت أنا وزوجى نحوا من خمسين عاما باحثين عن شىء مفقود منقبين عنه فى كل مكان فلم نجده الا الآن ـ نعم فى هاتين السنتين الاخيرتين فقط منذ فقدنا كل شىء وصرنا عاملين عثرنا على ضالتنا المنشودة ، عـثرنا على السعادة الحقيقية التى لامطمع لنا بعدها

ماتفوهت المرأة بهذا الحـديث حتى التفت كل من الجالسين

الى الآخر التفاتة دلت على ماداخلهم من الاندهاش الا أنها استمرت في حديثها بكل تؤدة وهدوء :

ـ « مكثنا نصف قرن كامل ونحن نفتش عن السعادة بين رياش الغنى وفي قصور الثراء فلم نعثر عليها الا الآن حيث ولت هاتيك الأيام كالاشباح وانصرمت تلك الاوقات المشمشمة بأنوار الثروة فسألها الضيف :

ـ كيف ذلك وماذا تعنين بالسعادة ؟ فأجابته

ـ ماأشرقت علينا شمس الغنى حتى ظهرت من ورائها المتاعب الجمة وتوالت علينا الهموم العديدة . كنا نجلس انفكر في الاهتمام بأمر أنفسنا قليلا ونود لو تفرغنا لتأدية الصلاة ولكن هيهات ! كنا نحاول النوم ولكن من أين لنا ذلك وجيوش الافكار تتقفانا تطرد عن أعيننا الكرى، وأشباح المخاوف والوساوس تتأثرنا فتبعث بنا في ظلمة الليل وسكونه الى حيث نخاف أن يفترس الذئب فلوا أو عجلا أو يسرق اللصوص بعض خيولنا ونعاجنا وهكذا كلما خامر فؤادنا الريب ولعبت بنا الهواجس دفعنا الحذر الى الاستيقاظ عدة مرات .

كان يقصدنا الضيوف على اختلاف مشاربهم وتباين طبقاتهم فكنا نضطر الى تضييفهم بما نقدمه لهم من أنواع الطعام ومختلف

الشراب وما نتحفهم به من الهدايا الفاخرة حتى نحبس ألسنتهم فلا نكون هدفا لسهام لعنتهم. ونسد أفواههم فلا ينزلوا علينا وابلا من قذائف اللوم والتقريع

وفضلا عن كل ذلك لم يكن هناك توفيق بيني وبين زوجي فكنا على تباين تام وكان هذا مبعثا لاضطرام نار الشحناء التي كانت تتأجج ساعات وأيام. هذه كانت حياتنا سلسلة شقاء متواصل فمن أين اذن تطرق السعادة بابنا ! وكيف نتمتع بالرخاء والهناء وهذه حالنا،

أما الآن فنستيقظ من نومنا متبادلين تحية الصباح ثم نتناول طعام الافطار ونخرج الى العمل حيث نقضي سحابة نهارنا في هدوء شامل لا يكدر صفوه مكدر. وعند الأوبة من العمل نلقى أمامنا من الطعام ما نأكله مريئا ومن الشراب ما نلذبه هنيئا وأمامنا متسع من الوقت يمكننا من الاهتمام بأنفسنا وتأدية فرائض العبادة لله واذا دلفنا الى فراشنا ننام ملء جفوننا لا تزعجنا الاحلام ولا ترهبنا المخاوف والاوهام فهاهي السعادة التى نقبنا عنها نصف قرن ولم نعثر عليها الا فى هذه الايام.

ما أتمت المرأة حديثها حتى سخر منها الحاضرون الا أن الياس استفزه الغضب فقال لهم :

« لاتسترسلوا فى ضحككم أيها الرفاق فليس فى الامر مايستوجب المجون والمزاح ـ وماهى الاحقائق الحياة نسردها لكم. لقد تملكنا الجهل بادىء بدء فانسجمت عبراتنا حزنا على ذلك العز الضائع ولكنها الحقيقة أراد الله أن يرينا اياها ناصعة فنحن الآن نقصها عليكم لا لمنفعة نترقبها أو فائدة ننشدها انما هي لفائدتكم وذكرى لمن يذكر »

فقال الملا إن هذه لموعظة بالغة وقول الياس الصدق اذهو موافق لماورد فى الاحاديث المأثورة فأمسكوا عن الضحك وأطرقوا كلهم يفكرون فيما دار بينهم من الحديث .



— ٨ —

قمحة فى حجم بيض الدجاج

عثر بعض الصبية ذات يوم فى أحد الاقبية على شىء يشابه فى الشكل حبة القمح فى وسطها شق ينتهى بنهايتها ولكنها فى الحجم تبلغ بمقدار بيضة الدجاج . فرآها بعض السابلة فى أيدى الصبية واشتراها منهم ببنس واحد ثم حملها الى المدينة حيث باعها للملك كعجيبة من عجائب الزمن

وجمع الملك علماءه وطلب منهم أن يكشفوا له عن حقيقة تلك العجيبة فأغرق العلماء فى التفكير والبحث والتمحيص دون أن يهتدوا الى الحقيقة وبقى أمرها خافيا الى أن طارت نحوها دجاجة وهى فى نافذة من نوافذ قصر الملك ونقرتها حتى نقبتها وعندئذ انكشفت الحقيقة وانجلى السر وعلم كل من رآها انها حبة من القمح فهرع العلماء الى الملك وزفوا اليه بشرى الحقيقة .

فدهش الملك حينئذ وطلب اليهم أن يأخذوا فى درس هذه القمحة ويخبروه فى أى زمان زرعت وفى أى مكان نبتت فعاد العلماء الى الدرس والتفكير منكبين على كتبهم للوصول الى الحقيقة الا أنهم لم يفوزوا بطائل ولم يستطيعوا حل اللغز فقالوا للملك :

ـ « لانستطيع أن نجيبك لأننا لم نعثر فى الكتب التى بين أيدينا علي تفسير لهذا المعنى فليأمر مولانا الملك بسؤال الزارعين فى هذا الشأن إذ قد يوجد بينهم من سمع شيئا من آبائه عن زراعة القمح فى مثل هذا الحجم » .

فأرسل الملك بطلب مزارع من القرويين المعمرين فبحث عمال الملك عن رجل فيه الاوصاف المطلوبة وكان رداً شاحب اللون لم تبق الايام على هيكله البالى سوى جلد مجعد على عظم دقيق وكان منحنى الظهر يتوكأ على هراوتين تساعدانه على الحركة . فلما مثل بين يدى الملك عرض عليه القمحة فجعل يفحصها بعينيه الضعيفتين اللتين لم يبق فيهما سوى بصيص ضئيل من نور الابصار فسأله الملك

ـ « أيها الشيخ العجوز أخبرنا أين تنبت مثل هذه القمحة وهل تذكر أنك اشتريت قمحا من نوعها أو زرعت فى حقلك مايماثلها ؟

وكان الشيخ الفانى مصاباً بشيء من الصمم فلا يسمع الا بعد جهد ولا ينطق الا بمشقة فاجاب بعد عناء شديد :

ـ كلا انى لم أزرع مثل هذه القمحة فى حقلى ولم أشتر مايشابهها . فالقمح الذي كنا نشتريه صغير الجرم كقمح هذه الايام ويمكن الملك أن يسأل أبى إذ ربما يكون قد سمع شيئا عن وجود

مثل هذه القمحة . فأرسل الملك فى الحال فى طلب أبيه حتى اذا ما مثل بين يديه رأى الملك منه شيخا أقوى من الابن قليلا بنظر بعينين أكثر بريقا من عينى الابن ولا يعتمد فى سيره الا على هراوة واحدة فسأله القيصر عند ماعرضت عليه القمحة لفحصها :

ـ « أتعرف أيها الشيخ أين تزرع مثل هذه القمحة ومتى زرعت وهل اشتريت مايماثلها فى زمنك ؟

وكان هذا العجوز أحسن سمعا من الابن فأجاب على الفور

ـ لم أزرع ولم أحصد مطلقا مثل هذا القمح فى حقلى أما انى اشتريت قمحا فلم يحصل فى زمنى لأن النقد كان غير مستعمل فى عهدى وكان كل منا يزرع مايحتاج اليه من الحنطة ويبادل على الحاجيات الاخرى بالقمح الزائد عن حاجته . لاأعلم أين كان يزرع مثل هذا القمح لأننى لم أر له مثيلا وفى عهدنا كان القمح أكبر حجما وأوفر براً الا أنه لم يكن فى هذا الحجم غير أنى سمعت من أبى أن قمح زمانهم كان أكبر حجما وأوفر برا من قمح زماننا ويجدر بك أن تسأله فى هذا الشأن .

فبعث القيصر فى أثر والد هذا الشيخ وماعتم أن جاء على قدميه لايتوكأ على هراوة ولا هراوتين وكان براق العينين يتكلم بوضوح بلا تلجلج وعندما أعطاه الملك حبة القمح تناولها وجعلها

يقلبها بين أصابعه قائلا :

ـ لقد طال العهد ولم أر قمحة من هذا الصنف ثم أخـذ منها قطعة بثناياه فتذوقها وأضاف قائلا :

ـ انها بلا ريب من قمح ذلك الزمن .

فقال له الملك :

ـ أخبر نا ياجد الجدود أين كان ينبت مثل هذه القمحة وهل اشتريت مايماثلها فى عصرك وهل زرعت مايضارعها فى حقلك

فأجاب الشيخ العجوز :

ـ ان مثل هذا القمح كان يزرع في كل مكان فى عهدنا وقـد نشأت عليه وزرعته بنفسى وحصدت منه بيدى طول تلك الازمان الغابرة .

فسأله الملك

ـ وهل اشتريت مثل هذا القمح فى زمنك

فابتسم الشيخ وقال :

ـ لم يفكر أحد من أبناء ذلك العصر فى اقتراف مثل هـذا الاثم إذ كنا لا نعلم شيئا عن التعامل بالنقود وكان كل انسان يحتفظ من القمح بقدر كفايته

فقال القيصر :

ـ اذن خبرني أيها الجد أين كان حقلك الذى كنت تزرع فيه هـذا القمح؟

فاجاب الشيخ :

ـ كان حقلي أرض الله الواسعة فحيث أحرث أزرع وحيث زرعت أحصد وما كان لانسان حقل يدعى ملكيته . كانت الارض مباحة للجميع ولا يملك الانسان سوى عمله وكسب يده .

فقال القيصر أجبني إذن عن سؤالين آخرين : أولهما لماذا نما مثل هذه القمحة في ذلك العهد ولم ينم في هذا الزمن وثانيهما لماذا جاءني حفيدك يتوكأ على هراوتين وأبوه على هراوة واحدة وأنت جئت بلا هـراوة : براق الثغر ، ثابت الجـأش ؟ ممتلأ لىء العين ، فصيح اللسان . فما السر فى كل ذلك فأجاب الشيخ العجوز

ـ السر في ذلك أن الناس أصبحوا لايعولون في حياتهم على العمل بانفسهم وانما جنحوا الى الاتكال والتطفل على عمل سواهم . كان الناس فى زماننا يعيشون تحت ظلال شريعة الله فكان أحدهم لايحتكم الا بما تجنيه يداه ويربأ بنفسه أن يغتصب ماجناه غيره ،

ثمن باهظ

— ٩ —

يوجـد على سواحل البحر الابيض المتوسط . بين حدود الجمهورية الفرنساوية والمملـكة الايطالية ، حكومة صغيرة تسمى (موناكو) ، يكاد عدد سكانها يقل عن أصغر المدن فى أوروبا ، حيث لا يزيد السكان فيها عن سبعة آلاف نسمة ، لو قسمت عليهم أرض المملكة جميعها لما أصاب أحدهم فدانا واحداً

ويحكم هـذه الحكومة الصغيرة ملك مستقل يتوج كما يتوج باقى الملوك ، وله قصر وبلاط وحاشية ووزراء بل وله أسقف وقواد وأيام للاحتفالات الرسمية واستعراض الجند ومجالس ومحاكم وقوانين ونظامات وجيش يبلغ عدده ستين جنديا. وفى هذه المملكة الصغيرة ضرائب كما توجد فى البلاد الاخرى تجبى من التبغ والنبيذ والمشروبات الروحية وضريبة أخرى على الافراد غير أنه وان كان الناس يدخنون ويتعاطون المسكرات كما يفعل النـاس فى البلاد الاخرى الا أن مايتوفر من هاتين الضريبتين قليل يكاد لا يكفى للمحافظة على أبهة الملك ومظاهره ولا ماشـة الحاشية والموظفين ولذلك لم ير الملك فى تلك البلاد مندوحة من أن يفكر فى ايجاد ضريبة جديدة مبتكرة

تدرعليه بالاموال الوفيرة وهذه الضريبة تأتى من بيت للقمار يلعب فيه الناس اللعب المعروف بالروليت. فالناس تلعب وسواء أخسروا أم كسبوا فلصاحب الدار جزء معلوم من الداخل والخارج ومن هذا الجزء يستوفى الملك مبلغا كبيرا من المال والسبب فى حصوله على الجزء الأوفى ان دار القمار الموجودة فى مملكته هى التى بقيت فى جميع أوربا، وقد كان بعض صغار الملوك من الألمان أباحوا تأسيس دور من هـذا النوع فى بلادهم كانت سببا فى ويلات على النـاس والانسانية ورأى أهالى المانيا انه كثيرا مايفد الرجـل الى دار من هذه الدور ليختبر حظه فيقامر بكل مايملكه من المـال . حتى اذا ماخسر اقترض وقامر بأموال غيره ففقدها أيضا الى أن يدب اليأس فى نفسه فينزع الى الانتحار : ولذلك ثاروا فى وجوه ملوكهم ووقفوا بينهم وبين اكتساب المال بهذه الطريقة الممقوته . أما ملك موناكو فلم يعترضه معترض عن الاستمرار فى اباحة المقامرة فى بلاده فظل سائرا فى سبيله حتى اليوم دون أن يلقى ممانعة أو معارضـة حتى أصبح محتكرا لهذا النوع من العمل

فكل إنسان يريد أن يقامر يجد ابواب موناكو مفتوحة له على مصراعيها وسواء أكسب أم خسر ، فلملك تلك البلاد نصيب مما فى جيبه . يقول المثل «انك لاتستطيع أن تحوز قصورا شامخة

من طريق العمل الشريف » وملك موناكو ليعلم تماما أن مورد رزقه ملوث دنس ولكنه مضطر لانه يريد أن يعيش ولانه يعلم أن الاموال الاخرى التي يجبيها من ضرائب التبغ والخمور ليست أصفى ولا أطهر من أموال القمار فهو بذلك يعيش ويحكم ويهب الجوائز والاعطيات ويحافظ على أبهة الملك كسائر الملوك الحقيقيين.

فهو يتصدر للحكم ويقيم مهرجانات التتويج ويعطى الأوسمة ويجازى ويعفو . وله كذلك مجلس للوزراء وقوانين ومحاكم لاقامة قسطاس العدل كسائر ملوك العالم ولكن بنسبة صغيرة وقد اتفق منذ بضع سنين أن وقعت جناية قتل فى تلك المملكة الصغيرة . فقد اعتاد أهل تلك المملكة على السكينة والسلام فلذلك لم يسبق لتلك الحادثة نظير فى تلك البلاد، واجتمع القضاة اجتماعا رسميا وبدأوا ينظرون فى القضية وكان هناك نواب عموميون. فتناقشوا فى القضية بعد درسها وأصدروا حكمهم بان يقطع رأس القاتل كما ينص القانون ثم رفعوا الحكم الى الملك فقرأه ووقع عليه بهذه الجملة « اذا كان المجرم يجب أن يقتل فليقتل » الا أنه اعترضتهم عقبة وقفت فى سبيل تنفيذ هذا الحكم تنبه لها الوزراء فيما بعد وهى عدم وجود آلة جيلوتين للاعدام أو جلاد للمملكة وبعد المداولة فيما بينهم قرروا أن يكتبوا للجمهورية الفرنسية يسألونها عما يكلفه جلب آلة جيلوتين وجلاد.

من فرنسا الى موناكو . وبعد اسبوع ورد اليهم الرد بأن ارسال الآلة ومأمورها يكلف ستة عشر ألف فرنك فلما عرض الجواب على الملك دهش منه وقال مستغربا ماهذا ؟ ان الشقى لا يساوى هذا المبلغ أندفع ستة عشر ألف فرنك دفعة واحدة ؟ ألا توجد طريقة أرخص من هذه ؟ ان المبلغ المطلوب لو وزعناه على سكان المملكة لأصاب الواحد منهم أكثر من فرنكين . وذلك لا يرضى الشعب وسيحدث بلا شك هياجا فى الافكار والخواطر . ثم دعي مجلس الوزراء الاجتماع والنظر فى المسألة من جديد فقرروا أن يرسلوا كتابا الى مملكة إيطاليا لما بينه وبين ملك البلاد من أواصر الاخوية فى الملكية وخليق بأن يلبي الطلب بثمن أقل وأرخص

فأرسل الكتاب وبعد زمن وجيز وردت الاجابة فاذا فيها أن ايطاليا ترسل الآلة ومأمورها بسرور ونظير نفقات تقدر بمبلغ اثنى عشر ألف فرنك وهو مبلغ أقل من الاول الا انه لا يزال باهظا بالنسبة لتلك المملكة الصغيرة ومن أجل ذلك دعى الوزراء للالتئام مرة أخرى فاجتمعوا وتداولوا فى ايجاد طريقة أرخص من هذه فقال بعضهم ألا يمكن لأحد من الجنود أن يقوم بذلك العمل ولو بطريقة خشنة وسرعان ما ارتاح الحاضرون لهذه الفكرة وعزموا على دعوة قائد الجند اليهم لأخذ رأيه فى الموضوع ، فلما حضر

الى المجلس قالوا له :

ـ ألا يمكن أن تجد لنا جنديا يستطيع أن يقطع رأس انسان ؟ فان الجنود لا يبالون بقتل البشر فى الحروب وهم يدربون فى الحقيقة على القتل ويتمرنون عليه ،

فاستمهلهم القائد ريثما يعرض الامر على جنوده ليرى من فيهم يقدر على القيام بتلك المهمة ؛ وعند ماذهب اليهم وفاتحهم فى الأمر لم يقبل أحد منهم أن يؤدى تلك المهمة البشعة ، وقالوا جميعا اننا لا نستطيع أن نؤدى ماتدعونا اليه وليس ذلك مما تعلمناه

فعاد الوزراء الى التفكير فى الأمر واجتمعوا مرات متعددة وقرروا أخيراً استبدال حكم الاعدام بالسجن المؤبد ، ظنا منهم ان هذا أحسن حل للمشكلة وأرخص كلفة ، وأقل نفقة ، فضلا عما فيه من مظهر الرحمة والشفقة . ولذلك لم يتردد الملك فى قبول القرار والتصديق عليه ، الا انه عقب صدور هذا القرار الثانى اعترضتهم مشكلة جديدة ، ذلك انه لم يكن فى المملكة سجن يصلح لحبس المجرمين مدى الحياة ، اللهم الا سجن واحد بسيط كانوا يحبسون فيه أحيانا بعض الناس حبسا مؤقتا ، وبعد امعان النظر طويلا فى الامر توفقوا لايجاد محل مناسب وضعوا فيه المجرم الشاب وعينوا له حارسا ليحرسه وليحضر له الطعام من مطبخ القصر .

ومر على ذلك عام كامل وجاء اليوم الذى يعرض فيه حساب نفقات القصر على الملك ، فلما عرض عليه رأى فى قائمة الحساب نفقات جديدة تحت عنوان « نفقات المحافظة على السجين واطعامه » تربوا على ستمائة فرنك وأنكي مافى المسألة ان السجين شاب يتمتع بصحة جيدة تدل على انه سيعيش على الاقل خمسين عاما أخرى . ولذلك دعا الملك وزراءه أزاء هذا الامر الخطير وقال لهم : يجب أن تجدوا طريقة أرخص من هذه لنعامل بها هذا الخبيث . ان فى الطريقة الحاضرة غبنا كبيراً واسرافا فاحشا ، فابحثوا لنا عن طريقة تنقذنا منه فاجتمع الوزراء بصفة غير عادية ونظروا فى الامر وفكروا فيه . فسنحت لأحدهم فكرة عرضها على زملائه بقوله انى أرى أيها السادة أن نعزل الحارس ونستغنى عنه

فاعترضه بعض الوزراء قائلا ولكن السجين سيفر حينذاك فاجابه صاحبه ليفر الى حيث يريد فنستريح منه . وتم الاتفاق على هذا الرأى وأقره الملك .

وفى اليوم التالى أمروا الحارس بأن يتنحى عن السجين وانتظروا ليروا ماذا يحدث ، الا ان السجين لم يحقق أملهم فانه بقى فى سجنه حتى وقت الغذاء ، فلما تأخر مجىء الطعام عن ميعاده فتح باب السجن لينظر الحارس فلم يجده — فذهب بنفسه الى مطبخ

الملك وأخذ من هنالك طعامه ثم عاد الى سجنه ، وفى الايام التالية
ومل ذلك أيضا واستمر على هذه الطريقة دون أن تبدو عليه أمارة تدل
على عزمه على الفرار ، فاسقط فى يد الوزراء هذه المرة أيضا وفكروا
فى كيفية الخلاص من هذه الحال . ففكروا فيما بينهم واستقر رأيهم
بان يقولوا له يجب عليك بان تغادر السجن الى حيث تشاء . لاننا
لانريد بان تبقى فيه فارسل الية وزير الحقانية وأحضره بين يديه
وقال له : لم لاتهرب ياهذا ؛ انه لاحارس يحرسك الآن فتستطيع
أن تذهب الى حيث تشاء من غير أن يؤاخذك الملك. فأجاب الرجل:

— أعلم يقينا ان الملك لايهتم بالامر ان أنا فررت ولكننى
لاأجد مكانا أهرب اليه ولا أعتقد اننى أستطيع أن أعمل عملا .
لانكم شوهتم سمعتى. وأفسدتم أخلاقى بحكمكم الذى أصدرتموه ضدى
وجعلتم الناس يولونى ظهورهم حينما حللت . وفوق هذا كله فقد
عطلت أشغالى وعاملتمونى معاملة سيئة . لقد حكمتم على بالموت فى
بادىء الامر وكان يجب أن تعدمونى . ولكنكم لم تفعلوا فلم أتذمر .
ثم حكمتم علي بعد ذلك بالحبس المؤبد وعينتم لي حارسا يحضر لى
طعامى فلم أتأفف . وبعد زمن طردتموه وأرغمتمونى على أن أنقل
طعامي بنفسى فما شكوت من ذلك أيضا. وهاأنتم اليوم تريدون منى
أن أهرب الامر الذى لاأرضاه ولا أقبل به . فاعملوا بى ماشئتم فانى

لن أهرب أبداً !

انعقد المجلس لينظر فى الطريقة التى يجب اتباعها بعد ذلك فرأى ان خير الطرق أن يعين له راتب سنوى بشرط أن يرحل من أرض المملكة ولا يسكنها. وعرضوا الامر على الملك قائلين له انه لا يوجد حل آخر لهذه المشكلة اذا أردنا أن نتخلص منه. فوافق جلالته على اعطاء الرجل ستمائة فرنك فى كل سنة بشرط ألا يسكن فى أراضى الملك

وعلى هذه الصورة انتهى الامر واستلم الرجل ثلث مرتبه السنوى مقدما وغادر تلك البلاد الى بقعة تبعد عن الحدود نحو ربع ساعة فى القطار حيث ابتاع له قطعة من الارض جعلها بستانا فهو يعيش الآن برخاء ويذهب فى أوقات معينة ليقبض راتبه وبعد أن يتناوله يمر ببيت القمار فيلعب بفرنكين او ثلاثة فاما ان يخسرها او يربح مثلها . ثم يعود الى مسكنه حيث يعيش بسلام واطمئنان

وقد كان من حسن حظه انه لم يرتكب جريمة فى بلاد لا يبالى اهلها مما يكلفه اعدام الرجال او بما يلزم لسجنهم المؤبد من النفقات.

١٠

الاسطورة الهندية

العمل والمرض والموت

من الاساطير المتداولة بين هنود أمريكا الجنوبية أن الله خلق الناس فى بدء الامر ورفع عنهم كلفة العمل فما كانوا يشعرون بضرورة المسكن والملبس والطعام. وظلوا على ذلك زمنا طويلا حتى صاروا مائة انسان وكانوا الى ذلك الوقت لم يشعروا بألم المرض وأوجاع العلل .

ثم أراد الله أن يرى كيف يعيش خلقه فلما وقف على حالهم ألفاهم يقاتل بعضهم بعضا ووجد كلا منهم لا يعبأ بغيره وانما يهتم بأمر نفسه مما يحول بينهم وبين الحياة السعيده والعيش الرغد الذى ينتظره لهم فقال : « انما هذا البلاء جاءهم من طريق التفرق والانقسام ومن اهتمام الواحد منهم بامور نفسه فحسب » ولذلك غير مجرى حياتهم وقد كانت من غير عمل بان سلط عليهم البرد والجوع ليجبرهم على نحت المغاور والكهوف يلتجئون اليها اتقاء البرد وليضطرهم الى السعى فى جمع الفواكه والثمار والحبوب دفعا لغائلة الجوع اذ

ان العمل يوجد فيما بينهم رابطة الاتحاد والتآلف فقال :

ـ «لا يستطيع الرجل بمفرده أن يصنع كل مايلزمه من الآلات والادوات ولا يمكنه أن ينقل مايحتاج اليه من الخشب ولا أن يبنى وحده المساكن التى تقيه العواصف والزوابع ولا أن يفلح الارض فيجمع محصولها ثم يغزل وينسج ويصنع الملابس والثياب لان كل هذه الامور تستدعى المعاونة وبذلك يتم لبنى الانسان الرابطة والائتلاف والاتحاد دون أن يشعروا بالدافع فيتم سرورهم وتكمل سعادتهم»

ثم مرت أيام وأزمان ورغب الرب فى أن يزور خلقه ليرى هل هم سعداء فى حياتهم الجديدة أم أشقياء تعساء ، ولما أتاهم وجدهم فى حالة أسوأ من الاولى

لقد فعلوا ماقدره لهم واشتركوا فى العمل ولكنه كان اشتراكا يعتوره النقص ولا يصل بهم الى الغاية المطلوبة . فانهم كانوا قد انقسموا الى جماعات تفرقها الاهواء والغايات تحاول أن تستأثر بالعمل والى عرقلة مساعى الاحزاب الاخرى . فصاروا يتنافسون ويتزاحمون ويتباغضون بكل ما فيهم من بغض وقوة فساءت حالتهم واشتد كربهم

وعمد الرب بعد ذلك الى اصلاحهم من طريق آخر فقدر

عليهم الموت وألا يعلموا وقت هذا القضاء وأشعرهم بذلك قائلا :

ـ « اذا ماعرفوا ان الموت لهم بالمرصاد يحافظون على أوقاتهم ويضنون بأعمارهم فلا يصرفونها الا في الاعمال الصالحة

« غير ان ذلك لم يثمر النتيجة المطلوبة بل رأى الرب عند اطلاعه على حالهم فى حياتهم الجديدة انه لم يحدث تغيير فى شأنهم ولا تبديل بل بقى سوء الحال ملازما لهم حيث اغتنم الاقوياء فرصة خضوع الانسان لقانون الموت فى أى وقت وأى حال فأخضعوا لارادتهم الضعفاء بعد أن قتلوا من قاومهم وتوعدوا المتمردين الباقين بالموت والهلاك

فأصبح الاقوياء بهذه الوسيلة يجنون ثمرة كد الضعفاء ونسج أعقابهم على هذا المنوال فورثوا الاستئثار بجني الضعيف من أجدادهم يعيشون على اكتاف الضعفاء من غير تعب ولا نصب.

ولكن الاقوياء ظلوا يشكون البطالة ويتململون من حياة الكسل بينما الضعفاء يتألمون ويتذمرون من اشتغالهم بأكثر مما يطيقون ويتضجرون من زيادة التعب وقلة الراحة واتسعت حلقة الخلاف أثناء ذلك بين الفريقين واشتدت أسباب العداوة والبغضاء وهكذا صارت حياة الناس بعيدة عن غاية السعادة .

ورأى الرب كل ذلك فعمد الى اصلاح حالهم ومعالجة شأنهم

بوسيلة أخرى فسلط عليهم ضروب الامراض وأنواع العلل ظنا منه أنه متى تعرض الناس للعلل والامراض على السواء تتحرك الرحمة فى قلوب الاصحاء على المرضى فيشفقون عليهم ويواسونهم ويمدون اليهم يد المعونة ليقابلهم المرضى بالمثل اذا ما تعرضوا لسهام المرض

وبعد زمن طويل عاد الرب الى اختبار حالتهم الجديدة فوجدهم أسوأ من ذى قبل وأشد كربا مما كانوا عليه فى سالف العهد . لان الامراض التى سلطها عليهم لتكون واسطة لتأليف القلوب كانت سببا فى التفرقة والتباعد اذ بقى الاقوياء يستخدمون الضعفاء وقت المرض ولا يهتمون بشأنهم عندما تنتابهم العلل . وهكذا كان اولئك الضعفاء المساكين يعملون لمنفعة غيرهم طول حياتهم ويخدمون سادتهم فى حالتى الصحة والمرض بينما هم لا يجدون فرصة لمداواة أمراضهم ولا يلقون عطفا وعناية من أحد . لقد بنيت لهم بيوت خاصة يقيمون فيها أوقات المرض فيحيوا أو يموتوا لئلا يعكر منظرهم ـ وهم يعانون أوجاع المرض ـ صفو أولئك الاقوياء وسرورهم . فيتركون فى تلك المساكن الخاصة لعناية أناس مأجورين يمرضونهم بلا دافع عطف أو حنان وفوق هذا كله حمل خوف العدوى الكثيرين على اجتناب الاختلاط بالمريض

والابتعاد عن كل من يخالطه .

ورأى الرب هذه الحالة فقال :

ـ « اذا كانت هذه الوسيلة لم تكف لافهام الناس أين تكون السعادة فليكن الألم في المستقبل مرشداً لهم »

ثم ترك أمور الناس لهم يتصرف فيها كيف شاؤا

هذه هي أسطورة هنود أمريكا وقد مرت على البشر عصور كثيرة قبل أن يدركوا كيف يكونون سعداء . وفي الايام الاخيرة بدأ قليلون يشعرون بأن العمل ليس معناه استعباد الناس وانما هو وظيفة عامة مشتركة يؤلف بين الناس ويجمع شملهم وصاروا يفهمون أن الشيء الوحيد الذي نستطيع به أن نقابل تهديد الموت الواقف لنا بالمرصاد هو صرف أعمارنا في الاتحاد والالفة والمحبة والسلام وان العلل والامراض أبعد ما تكون عن تفريق الناس وتشتيت شملهم بل هي بالعكس الوسيلة التي تدفعهم الى التحابب والتآلف ؟

صحيفة